

سينا للنشر

الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود

إسرائيل شاحاك

ترجمة: حسن خضر

وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب التي حولكم. منهم تقتنون عبيداً وإماءً. وأيضاً من أبناء المستوطنين النازلين عندكم منهم تقتنون ومن عشائرهم الذين عندكم الذين يلدونهم في أرضكم فيكونون ملكاً لكم. وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك. تستعبدونهم إلى الدهر. وأما إخوتكم بنو إسرائيل فلا يتسلط إنسان على أخيه بعنف " لاويين: صفحة ٢٠٠ "

الكتاب : الديـــانة اليهـــودية
ومواقفها من غير اليهود
الكاتب : إســـرائيل شـــاحـــاك
ترجمة : حســـــن خضـــــر
الطـــبعة الأولـــى ١٩٩٤

الناشـــــر : ســـينا للنشـــر
المدير المسؤول : راويــة عبد العظيم

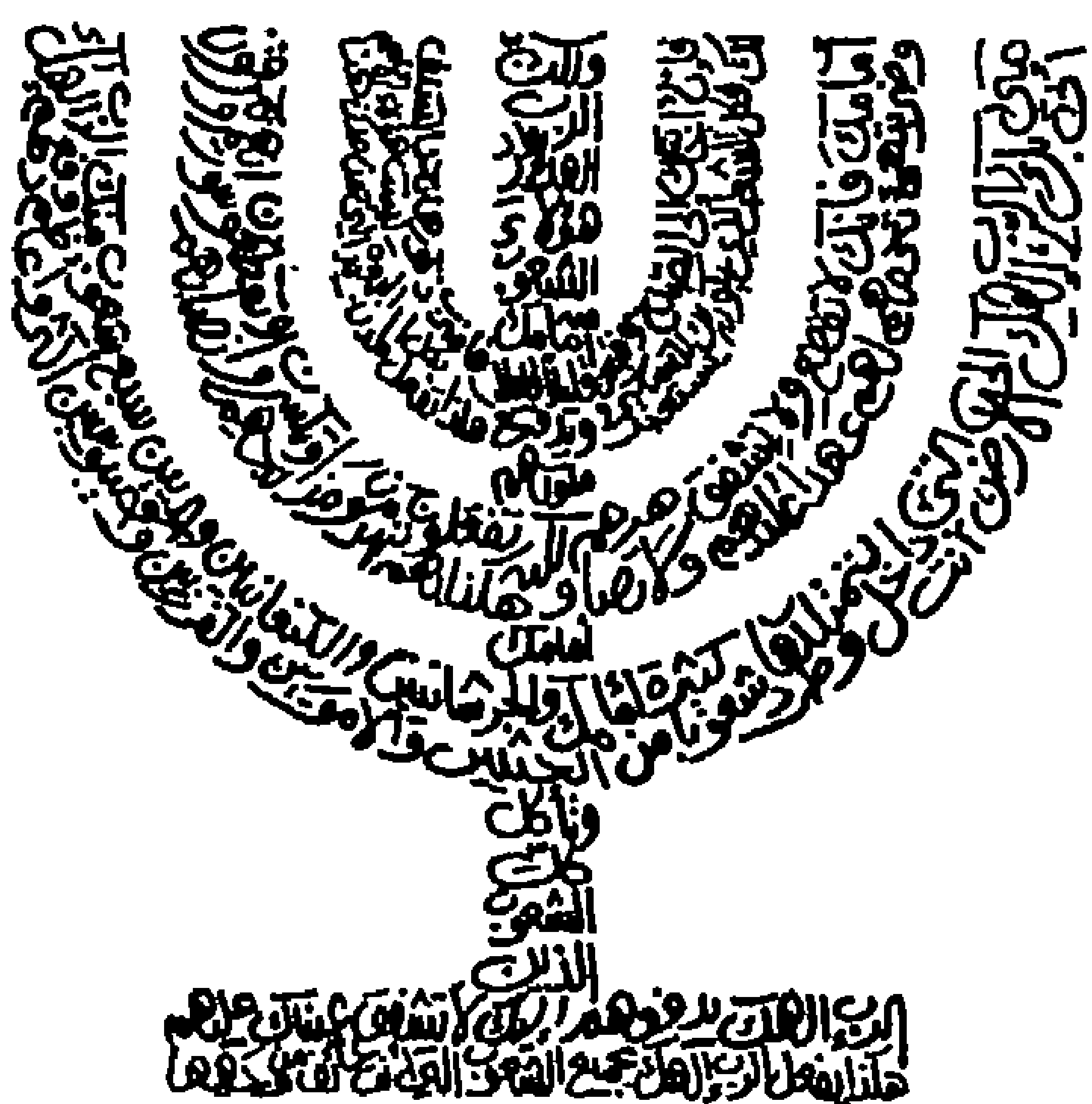
١٨ ش ضريح سعد - القصر العينى -
القاهرة - جمهورية مصر العربية -
تليفـون / فاكـس : ٣٥٤٧١٧٨ / ٠٢٠٢

الغـــــلاف : عمـــاد حلـــيم
الاخراج الداخلي : إينـــاس حســني
الصــــــف : ســـينا للنشـــر

إسرائيل شاحاك

الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود

ترجمة: حسن خضر





سينا للنشر

«الإسلامية» لغة ومفاهيم التراث، حتى وصلت فى استنتاجاتها إلى كاريكاتور «بروتوكولات حكماء صهيون» والمؤامرة اليهودية الكبرى فى التاريخ (ذات منشأ غير عربى أو إسلامى لكنها تجد فى الكتب التراثية أسانيد عديدة) فك الخطاب «اليسارى» العربى ارتباطه بالترسانة التراثية فى قطيعة لغوية ومعرفية، وصلت إلى حد الفصل بين اليهودية والصهيونية كظاهرتين مستقلتين، وتجلت فى كاريكاتور البرجوازية اليهودية الطامحة بالسلطة والسوق الخاصين بها فى السوق الرأسمالى العالمى (فكرة ذات منشأ غير عربى أيضاً، وهى مستمدة من تأويلات للفكرة الماركسية، حول ضرورة البحث عن سر الدين فى اليهودى، بدلاً من البحث عن سر اليهودى فى دينه) .

لا ينبغى الاستنتاج مما تقدم أننا بصدد الدعوة إلى «علم» عربى المنشأ (طالما أننا نشير إلى المنشأ غير العربى للأفكار سالفة الذكر) لمعالجة تاريخ اليهود و اليهودية وعلاقته بالصهيونية. فالدعوة التى نستعين بهذه الترجمة للتدليل عليها هى ضرورة البحث عن قواسم مشتركة بين البحث عن سر الدين فى اليهودى والبحث عن سر اليهودى فى دينه، دون الوصول بالضرورة إلى الاستنتاجات المتطرفة التى لا تسندها الوقائع التاريخية.

فالصهيونية ، مثلاً تعتبر نموذجاً متأخراً ومنحطاً للقوميات العنصرية الأوروبية فى القرن التاسع عشر، لكنها تعتبر، بالقدر نفسه، ارتداداً يهودياً على حركة التنوير اليهودية «الهاسكالاه» فى القرن المذكور، ولم يكن ذلك الارتداد ليتأتى بالصورة التى تم بها، لو لم تكن ثمة عناصر أصيلة فى

الديانة اليهودية تدعمه وتقدم له إمكانيات النجاح. كذلك لا يمكن تبرير موقف الدولة اليهودية من الفلسطينيين والعرب عموماً بحقائق الجغرافيا السياسية فى الشرق الأوسط، إذ ربما نعثر على تبرير إضافى فى الموقف العام المعادى للانحياز فى الديانة اليهودية. ذلك الموقف الذى يستفيض شاحاك فى دراسته والتدليل عليه .

-٢-

لا يجرؤ أحد فى الغرب (الولايات المتحدة وأوروبا الغربية) على توجيه انتقادات للديانة اليهودية كما يفعل شاحاك فى الدراسة المطروحة بين أيدينا، فالتهمة الجاهزة هى «العداء للسامية» إذا كان الناقد من غير اليهود، أو «اليهودى الذى يكره نفسه» إذا كان الناقد يهودياً، وكلاهما يودى بصاحبه إلى التهلكة بالمعنى الوظيفى، والعلمى، والاجتماعى. لقد ظهرت هذه النزعة بقوة واضحة بعد الحرب العالمية الثانية، وتكرست كظاهرة راسخة فى التقاليد الثقافية الغربية بعد قيام دولة إسرائيل، واتخذت فى العقود القليلة الماضية شكلاً عصابياً حتى بات كل انتقاد للسياسة الإسرائيلية مهما كان هامشياً، عداء للسامية، وكل انتقاد للصهيونية برهنة جديدة على خلود ذلك العداء الذى لا يزول ولا يدول .

ومما له دلالة بالغة فى هذا السياق ، أن يعنون بول فندلى، النائب الأميركى، كتابه الذى يتضمن انتقادات للسياسة الإسرائيلية باسم «من يجرؤ على الكلام» أو أن يتهم ايلان هاليفى، اليهودى، ومؤلف كتاب

ملاحظات ضرورية قبل قراءة الكتاب

ترد فى هذا الكتاب مصطلحات ومفردات من العبرية ، ونأمل لاستكمال الفائدة ، أن يضعهاالقارىء العربى فى اعتباره ، ونثبت هنا أهم هذه المصطلحات مع شروحها :

القبالاه : علم التأويلات الباطنية والصوفية عند اليهود ، انقسمت إلى قسمين: نظرى خاص بالطريق إلى المعرفة الباطنية والفيض الإلهى، وعملى وهو أقرب إلى السحر الذى يستخدم التسبيح باسم الله ورموز الحروف والأرقام الأولية لتحقيق الغايات. انتشر الفكر القبالى بين يهود أوروبا فى القرن السادس عشر وبين يهود شرق أوروبا فى القرن الثامن عشر. من أهم المفكرين القباليين فى العصر الحديث الحاخام إبراهام كوك، والحاخام القلعى. من أشهر كتبها الباهير، وكذلك كتاب الزوهار وهو أهمها .

الييديشية : لهجة ألمانية جنوبية يستخدمها يهود شرق أوروبا .

ظهرت بين عامى ١٠٠٠ و ١٢٥٠ وهى خليط من المفردات الألمانية والعبرية والسلافية، نشأت أساساً فى ألمانيا وحملها اليهود معهم حينما هاجروا فى القرن الخامس عشر إلى بولندا وروسيا. أصبحت لغة سائدة بين اليهود فى أوروبا الشرقية. ما تزال مستخدمة فى المدارس التلمودية فى إسرائيل، من أشهر كتّاب اليديشية مندل موخير سفاريم و شالوم عليخيم .

الميتسفاه : تعنى الوصايا الدينية ويبلغ عددها ٦١٣ وصية، أما البارميتسفاه المقصودة هنا فتعنى تلقى الوصايا المذكورة بصورة احتفالية وتتم عادة للذكور والإناث فى سن ١٣ و ١٢ سنة على التوالى. وهى السن المبكر لقيام الشخص بتحمل مسؤلياته الدينية. وهذا الاحتفال يعتبر من أهم المناسبات لدى اليهود الأميركيين .

ميشناه توراه : كتاب وضعه موسى بن ميمون، اليهودى المولود فى قرطبة ، الذى أصبح من أهم فلاسفة الديانة اليهودية. وقد استقر بن ميمون فى القاهرة وعمل طبيباً خاصاً لنور الدين على أكبر أبناء صلاح الدين الأيوبى. يحتوى ميشناه توراه على ترتيب وإيجاز لكل ما حواه العهد القديم من القوانين، إضافة إلى جميع قوانين المشناه والجماراه.

الصدوقيون : طبقة دينية تعود بأصولها إلى قرون عدة قبل ظهور

«أكتب هنا ما أعتقد أنه الحق، لأن حكايات الإغريق كثيرة وهى، كما أرى، مثيرة للسخرية» .

(هكتا نيوس المليتى، كما نقله هيرود)

«أفلاطون صديق، لكن الحقيقة صديق أعظم»

(مقطع من «الأخلاق» لأرسطو)

«فى دولة حرة يفكر كل إنسان بما يريد، ويقول ما يفكر به »

(سبينوزا)

القسم الأول
التحيز والمراوغة

تعريف المصطلحات : التحرير من الخارج

أول مصاعب الكتابة حول هذا الموضوع أن مصطلح «يهودى» قد استخدم فى المئة وخمسين سنة الأخيرة بمعنيين مختلفين. لإدراك هذا الأمر، فلنتخيل أنفسنا فى العام ١٧٨٠، كان المعنى الشائع المقبول، عندئذ، لمصطلح يهودى ينسجم جوهريا مع الشىء الذى فهمه اليهود كمكوّن لهويتهم. كانت تلك الهوية دينية فى المقام الأول، لكن التعاليم الدينية تحكمت بتفاصيل السلوك اليومى فى كافة جوانب الحياة الاجتماعية والشخصية بين اليهود أنفسهم، وكذلك بعلاقتهم مع غير اليهود. لم يكن بمقدور اليهودى فى ذلك الوقت، بالمعنى الحرفى للكلمة، أن يشرب حتى كأس ماء فى بيت غير يهودى. كما كانت نفس التعاليم السلوكية تجاه غير اليهود مطبقة بحذافيرها من اليمن حتى نيويورك.

التعاليم الدينية منذ فقدان الطائفة اليهودية هناك لسلطة عقاب المذنبين، واضاف «هنا، فى برسبرغ، عندما يقال لى إن بقالا يهوديا تجرأ وفتح دكانه فى الأعياد أرسل على الفور شرطيا لاعتقاله» .

هذه أهم حقيقة اجتماعية للوجود اليهودى قبل حلول عصر الدولة الحديثة: مراعاة التعاليم الدينية اليهودية، وغرسها فى الأذهان، يتمان بالإكراه المادي الذى لا يجد الإنسان مهرباً منه إلا باعتناق ديانة الأغلبية، أى الإقدام على قطيعة اجتماعية كاملة، وهى غير عملية أبداً، إلا فى حالة وقوع أزمة دينية (١) .

رغم ذلك، بمجرد ظهور الدولة الحديثة للوجود فقدت الطائفة اليهودية سلطة معاقبة أو تدجين اليهودى الفرد، وتقطعت أواصر أحد أكثر «المجتمعات المغلقة» إغلاقا، وأحد أكثر المجتمعات استبداداً فى التاريخ البشرى برمته. جاء فعل التحرير هذا، بقسطه الأعظم، من الخارج، بيد أن بعض اليهود قدموا له يد العون من الداخل ، واولئك كانوا فى البداية قلة قليلة. كانت لفعل التحرير من الخارج أوخم العواقب على المستقبل، كما سنرى فى ألمانيا (حسب التحليل البارع لـ م . ج . ب. تايلور) فقد كان من السهل الجمع بين الانقلاب على الحقوق من جهة والمشاعر الوطنية من جهة أخرى. ففى الواقع، جاءت حقوق الفرد والمساواة أمام القانون الى المانيا مع جيوش الثورة الفرنسية، ونابليون. ولذا نستطيع القول عن الحرية بأنها «غير

(١) يحذف هذا كله عادة فى كتب التاريخ اليهودية المبتذلة لترويج أسطورة أن اليهود حافظوا على ديانتهم بمعجزة، أو بنوع من القوة السحرية الغامضة.

ألمانية». بهذا المعنى أصبح من السهل جدا بين اليهود، خاصة فى إسرائيل، شن هجوم شديد الفعالية على كل أفكار ومثل الحركة الإنسانية وحكم القانون (ناهيك عن الديمقراطية) باعتبارها أشياء «غير يهودية» أو «معادية لليهود» (وهى كذلك، بالمعنى التاريخى) وفى نفس الوقت النظر إليها كأشياء يمكن استخدامها «لصالح اليهود» مع نزع أى مصداقية عنها إذا تعارضت مع «المصلحة اليهودية»، وهذا يحدث عندما يستشهد بها العرب، مثلا. نجم عن هذا الموقف، كما حدث فى ألمانيا ودول أخرى فى أوروبا الوسطى، كتابة تاريخ يهودى مخادع، وعاطفى، ومبالغ الرومانسية، حذفت منه الحقائق الموجعة.

لذلك، لن يجد الإنسان فى كتابات حنا أرندت الغزيرة سواء حول الاستبداد، أو اليهود أو كليهما [(١)]، أدنى إشارة إلى ما كان عليه المجتمع اليهودى فى القرن الثامن عشر: إحراق كتب، اضطهاد كتّاب، نزاعات حول القوى السحرية للتمائم، حظر معظم التعليم الابتدائى «غير اليهودى» مثل كتابة اللغة الألمانية دون أخطاء، أو حتى الألمانية المكتوبة بالأبجدية اللاتينية [(٢)]. كما لن يجد الإنسان فى «التواريخ اليهودية» الكثيرة باللغة الإنجليزية، أى حقائق أولية حول موقف الصوفية اليهودية «أصبحت موضة شائعة جدا فى أوساط معينة هذه الأيام» تجاه غير اليهود : فهم يعتبرون،

---

(١) مثلا فى كتابها Origins of totalitarianism، هناك جزء كبير مكرس لليهود.

(٢) قبل نهاية القرن الثامن عشر، سمح لليهود الألمان من جانب حاخاماتهم بكتابة الألمانية بأحرف عبرية فقط، تحت طائلة الحرمان الدينى والجلد.. إلخ.

لكل ما تقدم ، اكتسب مصطلح يهودى فى المئة وخمسين سنة الأخيرة دلالة مـزدوجة مما تسبب باضطراب كبير في فهم بعض أصحاب النوايا الطيبة، خاصة فى البلدان الناطقة بالإنجليزية الذين يتصورون أن اليهود الذين يقابلونهم فى المناسبات الاجتماعية «يمثلون» اليهود (عموماً). لقد جرى تحرير اليهود فى بلدان أوروبا الشرقية وكذلك العالم العربى من طغيان دياناتهم وطوائفهم على يد قوى خارجية، فى وقت متأخر جدا وظروف غير ملائمة لوقوع تغيير اجتماعى حقيقى يطال الذات نفسها، ولذا حوفظ، فى معظم الحالات، وبالذات فى إسرائيل، على المفهوم القديم للمجتمع وعلى نفس الأيديولوچيا (خاصة موقفها تجاه غير اليهود وكذلك نفس المفهوم الزائف للتاريخ. ينطبق هنا القـول، أيضـا، حتى على بعض أولئك اليهود الـذين انضموا لحـركات «تقدميـة» أو يسـارية. ولعـل دراسـة الأحـزاب الراديكالية والاشتراكية والشيوعية تقدم العديد من الأمثلة حول شوفينيين وعنصريين يهود مقنعين، انضموا لتلك الأحزاب لأسباب تتعلق «بالمصلحة اليـهودية» وهـم فى هـذه المنطـقة من العـالـم يؤيـدون التمييز المـوجـه ضد الأغيار. ولا يحتاج الإنسان إلا لمراجعة أعمال الاشتراكيين اليهود الكثيرين الذين تمكنوا من الكتابة عن الكيبوتس، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء القول بأنها مؤسسة عنصرية مغلقة بوجه غير اليهود من مواطنى إسرائيل(١).

---

(١) أكتب هذا، كإنسان لا يؤمن بالاشتراكية، لكننى أحترم وأقدر أولئك الناس الذين اختلف مع مبادئهم إذا بذلوا جهدا مخلصا ليكونوا صادقين مع تلك المبادىء. من ناحية أخرى ليس هناك ما يثير الاشمئزاز أكثر من الاستخدام الزائف للمبادىء الكونية، سواء كانت صادقة أو كاذبة، لغايات أنانية خدمة لفرد، أو، وهذا أسوأ، لجماعة بعينها من الناس.

ليكتشف أن الظاهرة التى نشير إليها ليست بأى حال من الأحوال نادرة المثال .

ولعلنا إذا تجنبنا التسميات المبنية على الجهل أو النفاق، نرى أن كلمة «يهود» والكلمات الأخرى المشابهة لتصف نوعين مختلفين وحتى متناقضين من الجماعات الاجتماعية، لكن القاسم المشترك بينهما يختفى بسرعة فى الوقت الحاضر بسبب السياسات الإسرائيلية. هناك من ناحية المعنى التقليدى الاستبدادى المعروض أعلاه، ومن ناحية أخرى، هناك اليهود بحكم الميلاد ، أولئك قبلوا وذوّتوا منظومة الأفكار التى أسماها كارل بوبر «المجتمع المفتوح» (هناك أيضا البعض، وبالذات فى أميركا، الذين لم يذوتوا تلك الأفكار بل يتظاهرون بقبولها).

ومن الجدير بالملاحظة أن كل ما يدعى «السمات اليهودية»، وأعنى بها الصفات التى يسبغها المثقفون المزعومون فى الغرب على اليهود ، هى سمات حديثة، ومجهولة تماما خلال معظم التاريخ اليهودى، ولم تبرز للعيان إلا بعد فقدان الطائفة اليهودية الاستبدادية لسلطتها. فلنأخذ، على سبيل المثال، روح الدعابة اليهودية الذائعة الصيت، ليست الدعابة نادرة الوجود فى الأدب العبرى قبل القرن التاسع عشر وحسب (وموجودة فقط خلال فترات قليلة وفى بلدان كانت فيها الطبقة العليا اليهودية متحررة نسبيا من النير الحاخامى مثل إيطاليا بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر وأسبانيا الإسلامية) بل إن الدعابة والنكات محظورة تماما فى الديانة اليهودية، ما عدا، وهذا أمر له دلالة، النكات التى تستهدف ديانات أخرى [1]. ولم

(١) يبدو فى الواقع أن الكثير من جوانب اليهودية الارثذوكسية مستمدة من اسبارطه عن خلال التأثير السياسى المهلك لأفلاطون. حول هذا الموضوع انظر التعليقات الممتازة لـ Moses Hadas, Hellenistic Culture, Fusion and Diffusion, Columbia University Press, 1959.

أكثر أدوات «خيانة المثقفين» لمجاعة، عندما يتم تحريفها لاستخدامها فى الخداع ولذلك، تنزلق فى سياق تلك العملية، إلى الدرك الأسفل .

كان «لليهودية الكلاسيكية» [1] اهتمام ضئيل بوصف أو تفسير نفسها أمام أفرادها، سواء المتعلمين منهم (فى الدراسات التلمودية) أو الجهلة [2] ، ومما يثير الاهتمام أن عملية التأريخ اليهودية، حتى بكتابة الحوليات وهى أكثر انواع التأريخ جفافا، قد توقفت نهائيا منذ زمن جوزيفوس فلافيوس (نهاية القرن الأول) حتى عصر النهضة، عندما انتعشت لفترة قصيرة فى إيطاليا وبلدان أخرى خضع فيها اليهود لتأثيرات إيطالية قوية [3] ومما يثير الاهتمام أيضا أن الحاخامات شعروا بالخوف من التاريخ اليهودى أكثر من التاريخ العام، وأول كتاب حديث فى التاريخ مطبوع بالعبرية (فى القرن السادس عشر) كان بعنوان «تاريخ ملوك فرنسا وملوك بنى عثمان» وأعقبته بعض كتب التاريخ التى تعالج الاضطهادات التى تعرض لها اليهود. وأول كتاب فى التاريخ اليهودى نفسه[4] (يعالج الأزمنة

---

(١) فى هذا المقال استخدم مصطلح «اليهودية الكلاسيكية» للإشارة إلى اليهودية الحاخامية التى نشأت حوالى القرن الثامن واستمرت حتى نهاية القرن الثامن عشر وأتجنب مصطلح «اليهودية القرووسطية» الذى يستخدمه كثير من الكتاب، لأنه يحمل دلالات غير مبررة.

(٢) كتابات اليهود الهيلينيين مثل فيلو اسكندرى، تمثل استثناء. لقد كتبت قبل تحقيق اليهودية الكلاسيكية لهيمنتها. وحجبت تلك الكتابات فيما بعد عن اليهود، ولم تعش إلا بفضل الرهبان المسيحيين الذين وجدوها ملائمة لأفكارهم.

(٣) خلال كل الفترة من القرن الأول حتى الخامس عشر كتب كتابات فى أدب الرحلات، وكتاب عن تاريخ الدراسات التلمودية - كتاب صغير الحجم، غير دقيق وجاف، وقد كتبه فيلسوف يحتقره اليهود (إبراهام بن دافيد - أسبانيا ١١٧٠).

(٤) «ميمور عينايم» الذى كتبه عزاريا دو روس الفيرارى، إيطاليا، ١٥٧٤.

الغابرة) تم حظره على الفور من جانب أعلى المراجع الدينية، ولم يطفُ على السطح مجددا قبل حلول القرن التاسع عشر. مزيدا على ذلك، أصدرت السلطات الحاخامية فى أوروبا الشرقية أمرا بمنع جميع الدراسات غير التلمودية، حتى تلك التى لا تشتمل على أى شىء ليستحق البغض، وذلك لأنها تستهلك الوقت الذى يجب إنفاقه إما لربح المال أو دراسة التلمود. ولم تترك سوى ثغرة صغيرة، هى الوقت الاضطرارى، الذى يحتاجه حتى اليهودى الورع، فى المرحاض. كانت الدراسات المقدسة محظورة فى ذلك المكان غير الطاهر، ولذا سمح بقراءة التاريخ هناك، شريطة أن يكون مكتوبا بالعبرية ولا يتطرق لأى مسألة دينية، مما يعنى أنه يجب أن يكون مكرسا بصورة حصرية لموضوعات غير يهودية (ولعل الإنسان يتخيل أولئك اليهود القلائل فى ذلك الوقت الذين اهتموا بدافع من الشيطان دون شك، بتاريخ الملوك الفرنسيين وهم يتذمرون أمام جيرانهم على الدوام بسبب الإمساك الذين يعانون منه «لتبرير قضاء وقت طويل فى المرحاض») نتيجة لذلك، كانت الغالبية العظمى من اليهود قبل قرنين من الزمان تعيش كليا فى ظلمات الجهل، ليس الجهل بوجود أميركا وحسب، بل الجهل بالتاريخ اليهودى ووضعية اليهود فى أزمانهم أيضا. لكنهم كانوا يشعرون بالرضا ويريدون البقاء كذلك.

ومع ذلك، هناك مجال وحيد لم يسمح لهم بالبقاء مغلقين على أنفسهم حياله، التهجمات المسيحية على تلك المقاطع من التلمود والأدب التلمودى المعادية للمسيحية على نحو خاص، أو المعادية للأغيار عموما.

١٤٨٠ فى عهد سيكستوس الرابع ، وهو بابا نشط جدا من ناحية سياسية ولديه حاجة ملحة ودائمة للمال (قبل ذلك بسنوات قليلة نشر كتاب الأتان الذهبى الذى وضعه أبوليوس دون حذف التهجم العنيف على المسيحية، فى روما) كما كان البابا ألكسندر بورجيا ليبراليا جدا بهذا الصدد أيضا.

حتى فى تلك الأثناء، وقبلها، كانت ثمة بلدان ارتفعت فيها موجة من الاضطهاد المعادى للتلمود لبعض الوقت. لكن الموجة الاكثر ثباتا وانتشارا جاءت مع حركة الإصلاح الدينى والإصلاح المضاد، واشتملت على مستوى أعلى من النزاهة الثقافية، وكذلك معرفة أفضل بالعبرية بين العلماء المسيحيين. ومنذ القرن السادس عشر تعرض كل الأدب التلمودى، بما فى ذلك التلمود نفسه، للرقابة المسيحية فى بلدان مختلفة. استمرت الرقابة فى روسيا حتى عام ١٩١٧. كان بعض الرقباء، كما حدث فى هولندا، أكثر مرونة، بينما كان البعض الأخر أكثر قسوة، وتم حذف المقاطع العدائية أو تعديلها .

إن جميع الدراسات الحديثة حول اليهودية، خاصة التى يكتبها يهود قد تطورت عن ذلك الصراع، ومازالت، حتى يومنا هذا، تحمل العلامات التى لا تخطئها العين، الدالة على أصلها : الخداع، مجادلات اعتذارية أو عدوانية، لا مبالاة وحتى عدوانية نشطة بشأن تقصى الحقيقة، ولعل جميع ما يدعى بالدراسات اليهودية فى الديانة اليهودية، تقريبا، من ذلك الوقت حتى يومنا هذا هى مجادلات ضد عدو خارجى وليست مناقشات داخلية.

تجدر الملاحظة، هنا، أن تلك كانت فى البداية سمة كتابة التاريخ

الرسمى فى جميع المجتمعات المعروفة (ما عدا اليونان القديمة التى هوجم مؤرخوها الليبراليون لاحقا من جانب السوفسطائيين لأنهم يفتقرون للروح الوطنية) يصدق هذا الأمر على المؤرخين الكاثوليك والبروتستانت الأوائل الذين جادلوا بعضهم البعض، وبالقدر نفسه. فان أقدم التواريخ الأوروبية مشبعة بأكثر أشكال القومية فجاجة واحتقاراً للآخر، أى الأمم المجاورة. ولكن عاجلا أم أجلا يأتى وقت تنشأ فيه محاولة لفهم الآخر القومى أو الدينى، وفى الآن نفسه نقد جوانب معينة عميقة وهامة فى تاريخ الجماعة التى ينتمى إليها الإنسان. يحدث هذان التطوران معا. وكما يقول بيتر غايل بصواب تام، عندما يصبح التاريخ مناقشة بلا نهاية وليس استمرارا للحرب بأدوات تاريخية، عندئذ، فقط، يصبح التأريخ الإنسانى الساعى للصواب والموضوعية ممكنا، وعندما يتحول إلى أحد أقوى وسائل النزعة الإنسانية والتربية الذاتية، لذلك تعيد الأنظمة الاستبدادية كتابة التاريخ أو تعاقب المؤرخين[1]. ولكن عندما يحاول مجتمع بأكمله العودة إلى

---

(١) النماذج الستالينية والصينية معروفة بصورة كافية رغم ذلك تجدر الإشارة أن اضطهاد المؤرخين الشرفاء بدأ مبكرا جداً فى ألمانيا. فى عام ١٨٧٣اعتقل هـ - أوالد الأستاذ فى غوتنغن لأنه عبر عن أراء غير «دقيقة» حول فتوحات فريدريك الثانى، التى حدثت قبل مئة عام، والوضع فى إسرائيل مماثل، أسوأ الهجمات التى شنت ضدى لم تتسبب بها التعبيرات الجارحة التى استخدمها فى إدانتى للصهيونية وقمع الفلسطينيين، بل تسبب بها مقال لى حول دور اليهود فى تجارة العبيد، حيث وقعت آخر الأمثلة التى ذكرتها عام ١٨٧٠. لقد نشر ذلك المقال قبل عام ١٩٦٧، ويبدو نشره الآن أمرا مستحيلا.

فإن تعبيرات مثل: غيرى، لا يهودى، غريب (غوى، اينويهودى، نوخرى) التى تظهر فى كل المخطوطات الأولى والطبعات، وكذلك جميع النسخ المطبوعة فى البلدان الإسلامية، استبدلت بمصطلحات مثل: «وثنى». «همجى»، وحتى «كنعانى» أو «سامرى» وهى مصطلحات يمكن تبريرها أمام الآخرين، لكن القارىء اليهودى يعرف بأنها مصطلحات ملطفة للتعبيرات القديمة .

ومع تصاعد الحملة أصبح الدفاع أكثر إحكاما، مما أسفر أحيانا عن نتائج ذات تأثيرات مأساوية دائمة . ففى فترات معينة أصبحت رقابة روسيا القيصرية أكثر شدة، ومع اكتشاف التعبيرات الملطفة المذكورة أعلاه ومعرفة ما تعنيه فى الواقع، تم منعها أيضا. لذلك عوضتها المراجع الحاخامية بتعبيرات مثل «عربى» أو «مسلم» (بالعبرية يشماعيلى وهى على الاثنين معا) وأحيانا «مصرى» لأنها أدركت بصواب أن السلطات القيصرية لن تعترض علي هذا النوع من الإساءة. وفى نفس الوقت، جرى توزيع قوائم بالمحذوفات التلمودية، على هيئة مخطوطات، تشرح التعبيرات الجديدة وتشير إلى المحذوفة ، فى أحيان أخرى، كانوا يطبعون استنكاراً قبل صفحة العنوان على كل مجلد من مجلدات الأدب التلمودى، ينص ذلك الاستنكار، الذى قد يظهر على هيئة قسم أيضا، أن كافة التعبيرات العدائية فى هذا المجلد تشير إلى الوثنيين فى العصور الغابرة فقط، أو حتى ضد الكنعانيين الذين اندثروا منذ زمن بعيد، وهى ليست موجهة ضد «الشعوب التى نعيش فى أراضيها». وقد استخدم بعض الحاخامات بعد

الاحتلال الإنجليزى للهند حيلة تفيد ان أى إشارة تثير الغضب أو تحط من الكرامة يستخدمونها، يقصد بها الهنود فقط، وفى مناسبات أخرى، تمت الإشارة إلى السكان الأصليين فى استراليا باعتبارهم المقصودين بتلك التعبيرات.

من نافلة القول، أن كل ما سبق يمثل كذبة محسوبة من البداية إلى النهاية، بعد إنشاء دولة إسرائيل ، وبمجرد أن شعر الحاخامات بالأمان، تمت إعادة جميع تلك المقاطع والتعبيرات العدوانية بلا تردد فى طبعات جديدة (بسبب التكاليف الباهظة التى تحتاجها الطبعات الجديدة، فإن جزء كبيراً من الأدب التلمودى بما فى ذلك التلمود نفسه، تتم إعادة طباعته عن طبعات قديمة، لذلك نشرت المحذوفات التلمودية المذكورة أعلاه، فى إسرائيل، فى طبعة رخيصة بعنوان هير سونوت شاس) هكذا يستطيع الإنسان القراءة بحرية، ويتم تعليم الأطفال اليهود فعليا [١] مقاطع مثل تلك التى تأمر كل يهودى كلما مر بجوار مقبرة أن يدعو بالرحمة إذا كانت يهودية، وأن يلعن أمهات الموتى إذا كانت المقبرة غير يهودية [٢] . حذفت تلك اللعنة من الطبعات القديمة ، واستخدموا تعبيرات ملطفة بدل كلمة الأغيار، ولكن فى الطبعة الإسرائيلية الجديدة التى أعدها الحاخام عادين ستاينزلاس (كاملة مع شروحات عبرية ومسرد بمعانى الأجزاء الأرامية فى النص، حتى لا يخامر أطفال المدارس الشك بشأن ما ينبغى قوله بالضبط) عادت الكلمات التى لا تقبل الشك: «الأغيار» و «الغرباء».

---

(١) تراكتات بيراخوت، ص ٥٨ .

(٢) «تخزى أمكم جداً. تخجل التى ولدتكم» (أرميا ٥٠ - ١٢)

هكذا إذن، حذف الحاخامات أو عدلوا، عن طريق الخداع، وبسبب ضغوطات خارجية، مقاطع معينة فى الماضى، لكنهم لم يحذفوا أو يعدلوا الممارسات الفعلية التى تتضمنها، هذه حقيقة ينبغى تذكرها، ليس من جانب اليهود وحدهم على الأقل، فعلى مدار قرون استخدم مجتمعنا الاستبدادى عادات بربرية ولا إنسانية لتسميم عقول أفراده، وما زال يفعل ذلك (لا يمكن تبرير تلك العادات بأنها مجرد ردة فعل على العداء للسامية أو اضطهاد لليهود، فهى أعمال بربرية مجانية موجهة ضد كل بنى البشر، فلنتخيل يهودياً وربما يصل للمرة الأولى إلى استراليا، يمر مصادفة قرب مقبرة للسكان الأصليين، ويجب عليه، كنوع من عبادة «الرب» لعن أمهات الأموات المدفونين فى المقبرة) ما لم نواجه هذه الحقيقة الاجتماعية الفعلية، نصبح جميعا شركاء فى الخداع، ومتورطين فى عملية تسميم أجيال الحاضر والمستقبل، بكل ما لهذه المسألة من نتائج .

الخداع يتواصل

لم يواصل علماء اليهودية المحدثين خداعهم وحسب، بل حسنوا فعليا الطرق الحاخامية القديمة فى الوقاحة والكذب أيضا، وأنا أحذف هنا التواريخ المختلفة لمعاداة السامية. باعتبارها لا تستحق المناقشة الجدية، وسأقدم ثلاثة أمثلة محددة . ومثلا عاما حول الخدع « الأكاديمية » الحديثة.

نشر فى القدس عام ١٩٦٢ جزء من كتاب موسى بن ميمون المذكور أعلاه، يدعى كتاب المعرفة، ويحتوى على معظم المبادىء الأساسية للديانة

والممارسة اليهوديتين، فى طبعة ثنائية اللغة، توجد فيها الترجمة الإنجليزية مقابل النص العبرى [١] وقد أعيدت للنص العبرى نقاوته الأصلية ، فظهرت فيه الدعوة لتصفية الزنادقة اليهود بنصها الكامل: يقتضى الواجب أن يعمل الإنسان على إبادتهم بيديه، أما فى الترجمة الإنجليزية فقد ظهرت هذه العبارة بصيغة ملطفة نوعا ما: يقتضى الواجب اتخاذ إجراءات فعالة لتحطيمهم. لكن النص العبرى ينتقل بعدئذ لتوضيح النماذج الأساسية «للزنادقة» الواجب إبادتهم: «مثل يسوع الناصرى وتلامذته. والصدوقيين وتلامذتهم [٢] فليبلى الاسم الشرير» لا تظهر أى من الكلمات السابقة فى النص الإنجليزى على الصفحة المقابلة (٧٨٩) ومن المهم الملاحظة، رغم توزيع الكتاب على نطاق واسع بين العلماء فى البلدان الناطقة بالإنجليزية ، عدم احتجاج أحد منهم حتى الآن، فى حدود علمى، على ذلك الخداع الصارخ .

يأتى المثل الثانى من الولايات المتحدة ،مرة أخرى من ترجمة إنجليزية لكتاب لابن ميمون، الذى لم يصنف التلمود وحسب، بل كان فيلسوفا أيضا ، ويعتبر كتابه «مرشد الحيارى» بحق أعظم عمل فى الفلسفة الدينية اليهودية، هذا الكتاب مقروء على نطاق واسع ومستخدم حتى فى أيامنا ، ولكن من سوء الحظ، كان ابن ميمون، إضافة إلى موقفه تجاه غير اليهود

---

(١) نشره «بويز تاون». القدس، وحرره موسى هيماسون، أحد أكثر علماء اليهودية شهرة فى بريطانيا .

(٢) يفترض أنهم الذين أسسوا طائفة الصدوقيين.

عموما والمسيحيين على نحو خاص، عنصريا ضد السود، يناقش ابن ميمون قرب نهاية الكتاب فى فصل شديد الأهمية (الكتاب الثالث الفصل ٥١) كيف تستطيع قطاعات مختلفة من بنى البشر بلوغ القيمة الدينية العليا، والعبادة الحقيقية للرب، ولكن من بين أولئك الذين لا يستطيعون بلوغ هذه المرتبة: «بعض الترك (أى العرق المغولى) والقبائل الجوالة فى الشمال، والسود، والقبائل الجوالة فى الجنوب، ومن يشبهونهم بيننا. أما طبيعتهم فهى فى مثل طبيعة الحيوان الأبكم، وهم حسبما أرى أدنى مرتبة من الكائنات الإنسانية، ومرتبتهم بين الكائنات الحية أدنى من الإنسان، وأعلى من القرد، لأن هيئتهم أقرب إلى الإنسان منها إلى القرد»

والأن، ماذا يفعل الإنسان إزاء فقرة كهذه فى كتاب شديد الأهمية والضرورة حول اليهودية ؟

يجابه الحقيقة وما يترتب عليها ! لا سمح الله، ويعترف (كما فعل عديد من المثقفين المسيحيين، مثلا، فى ظروف مشابهة) بأن عالماً يهودياً بالغ الأهمية اعتنق افكاراً ضارية معادية للسود، ويمارس من خلال هذا الاعتراف نوعا من التربية الذاتية فى ما تعنيه النزعة الإنسانية !

أكاد أتخيل المثقفين اليهود فى الولايات المتحدة يتشاورون فيما بينهم: «ما العمل ؟» لأن هناك ضرورة لترجمة الكتاب، بسبب انحطاط معرفة العبرية بين اليهود الأميركيين. وسواء بواسطة التشاور، أو الإلهام الفردى، يتم العثور على «حل» سعيد. فى الترجمة الأميركية الشعبية للكتاب، التى أعدها فرايد لاندر، ونشرت أولا عام ١٩٢٥، ثم أعيد

نشرها فى طبعات كثيرة فيما بعد ،وبينها طبعات بأغلفة ورقية ، لم تترجم كلمة «كوشيم» العبرية التى تعنى السود ، بل كتبت بالانكليزية kushites وهى كلمة لا تعنى شيئا لمن لا يعرفون العبرية ، أو أولئك الذين لن يقدم لهم الحاخام تفسيراً شفوياً [1]. ولم تقل خلال كل تلك السنوات كلمة واحدة لإظهار الخداع القائم، ولا المعانى الاجتماعية التى تكتنف استمراره، حتى خلال الهيجان الذى تسببت به حملات مارتن لوثر كنج، تلك الحملات التى أيدها كثير من الحاخامات، ناهيك عن الشخصيات اليهودية الأخرى، والتى كان بعضها يعرف، بلا شك، الموقف العنصرى المعادى للسود ، الذى يشكل جزءا من تراثها اليهودى. [2]

المؤكد، أن ينقاد الإنسان للافتراض : إما أن بعض أنصار مارتن لوثر كنج الحاخاميين كانوا يعتنقون مواقف عنصرية معادية للسود ، لكنهم أيدوه لأسباب تكتيكية تتعلق «بالمصلحة اليهودية» (يريدون استمالة السود نحو اليهود الأميركيين والسياسات الإسرائيلية) أو أنهم كانوا من المنافقين المحترفين إلى حد انفصام الشخصية، حد الانتقال بسرعة فائقة من عنصرية

(١) يسعدنى القول إن كلمة «السود» ظهرت فى ترجمة جديدة نشرت مؤخراً (مطبعة جامعة شيكاغو) لكن المجلد ضخم جدا وباهظ الثمن، لذا لن يقدر له الوقوع بين «الأيدى الخطأ». بالقدر نفسه، سمح فى بريطانيا القرن التاسع عشر بنشر كتب راديكالية (مثل كتابات غودوين) شريطة أن تصدر فى طبعات باهظة الثمن.

(٢) يمكن ذكر حقيقة إضافية: كان بمقدور مختص يهودى فى الإسلام هو برنارد لويس (درّس سابقا فى لندن ويدرّس الآن فى الولايات المتحدة) نشر مقالاً فى مجلة «إنكاونتر»، يذكر فيه العديد من المقاطع فى الأدب الإسلامى التى تبدو معادية للسود ، حسب رأيه. ولكن لا يرقى أى من تلك المقاطع إلى ما ذكرناه فى مقالنا، ويبدو من المستحيل الآن، وحتى منذ ثلاثين عاما ، مناقشة المقاطع التى ذكرتها فى مقالى، أو أى مقاطع تلمودية أخرى معادية للسود فى كتب أميركية ذائعة الصيت. ولكن دون نقد جميع الأطراف يصبح الهجوم على الإسلام نوعا من التشهير.

خفية بشعة إلى تعلق علنى بالكفاح المعادي للعنصرية والسود، ثم العودة إلى مواقفهم القديمة مجدداً .

يأتي المثل الثالث من كتاب كانت مقاصده الثقافية أقل جدية، لكنه أكثر شعبية لهذا السبب: مُتع اليبديشية، من تأليف ليوروستن. هذا الكتاب الخفيف الظل، المطبوع للمرة الأولى عام ١٩٦٨، والذى أعيد نشره فى طبعات مختلفة، منها عدة طبعات صادرة عن دار «بنغوين» بأغلفة ورقية، عبارة عن مسرد للكلمات اليبديشية التى يكثر استخدامها من جانب اليهود، أو حتى غير اليهود فى البلدان الناطقة بالإنجليزية لكل مدخل، إضافة إلى تعريف مفصل وأمثلة مدهشة تبين طريقة استخدام الكلمة، هناك بحث فى أصل الكلمة وتاريخها يشير (بطريقة صائبة عموما) إلى اللغة الأصلية التى انتقلت منها المفردة إلى اليبديشية، ومعناها فى تلك اللغة. لكن مدخل كلمة «شايغتس» الذى يعنى «صبى أو شاب من الأغيار» يخرق القاعدة المذكورة، إذ تنص الإشارة إلى الأصل العبرى للكلمة بصورة مبهمة، دون إعطاء شكل ومعنى الكلمة فى الأصل العبرى. ومع ذلك تحت مدخل كلمة «شيكسا» مؤنث «شايغتس» يقدم المؤلف الكلمة العبرية الأصلية شايغتس (أو Sheqetz كما يكتبها) ويعرّف معناها فى الأصل العبرى على النحو التالى: «ملطخ، أو مشوه» وهذه كذبة صارخة كما يعرف كل متحدث بالعبرية، فقاموس ميغيدو الحديث العبرى- الانجليزى يعرف كلمة Sheqetz كما يلى: «حيوان غير نظيف، مخلوق كريه، مقيت، رث ، شاب فاسد، شاب من الأغيار» .

مثلى الأخير، الأكثر عمومية، إذا كان ذلك ممكناً، يصدم المشاعر أكثر من الأمثلة الأخرى، إنه يتعلق بموقف الحركة الحسيدية تجاه غير اليهود. والحسيدية - استمرار (وصورة منحطة) للصوفية اليهودية- مازالت حركة حية، لديها مئات الآلاف من الأتباع الذين يكرسون أنفسهم «لحاخاماتهم المقدسين» وقد أحرز بعضهم نفوذاً سياسياً كبيراً فى إسرائيل، ويتواجدون بين قادة معظم الأحزاب السياسية ، وحتى فى المراتب العليا للجيش.

ما هى، إذن ، أفكار هذه الحركة بشأن غير اليهود؟

للتدليل على تلك الأفكار، فلنأخذ، مثلا، «حاتانيا» الكتاب الأصولى الشهير لحركة حباد، أحد أهم فروع الحسيدية، يفيد الكتاب أن كل غير اليهود مخلوقات شيطانية «ليس بداخلهاأى شيء جيد على الإطلاق» حتى الجنين غير اليهودى يختلف نوعيا عن الجنين اليهودى، كما أن وجود غير اليهودى مسألة «غير جوهرية» فى الكون، فقد نشأ كل الخلق من أجل اليهود فقط .

هذا الكتاب متداول بطبعات لا تعد ولا تحصى، ويجرى ترويج أفكاره عبر «خطابات» كثيرة لأخ حباد الوراثى الحالى، المدعو حاخام لوبافيتشر، م . م . شنورز سوهن، الذى يقود هذه المنظمة المنتشرة فى أنحاء العالم من مركزه فى نيويورك.تنتشر تلك الأفكار على نطاق واسع فى إسرائيل فى أوساط الجمهور، وفى المدارس والجيش (تفيد شهادة شلوميت ألونى، عضو الكنيست، أن دعاية حباد ازدادت بصورة ملحوظة

قبل اجتياح إسرائيل للبنان فى مارس ١٩٧٨، وذلك لحث الأطباء العسكريين والممرضين على عدم تقديم الإسعافات الطبية «للجرحى الأغيار».لم تشر هذه النصيحة النازية إلى العرب أو الفلسطينيين بصفة محددة ،بل أشارت ببساطة إلى «الأغيار، غوييم» .

كان اثنان من رؤساء إسرائيل السابقين، شازار، وكاتسير،أتباعا متحمسين لحباد، كما أن الكثير من كبار الساسة الإسرائيليين والأميركيين،على رأسهم مناحيم بيغن ونائب الرئيس الأميركى مونديل،توددوا علانية لها وساندوها ،هذا ،رغم الاستياء الشعبى العام فى إسرائيل من حاخام لوبافيتشر،الذى ينتقد على نطاق واسع لأنه يرفض القدوم إلى الأرض المقدسة،حتى للزيارة،ويبقى نفسه فى نيويورك لأسباب ميسيانية غامضة .أما أفكاره العنصرية المعادية للسود فهى معروفة تماما فى نيويورك .

ولكن أن تلقى حباد، رغم المصاعب العملية، تأييداً علنياً من جانب كثير من الشخصيات السياسية، مسألة ترجع، بقدر كبير، للمعالجة الماكرة والمضللة من جانب معظم المثقفين الذين كتبوا عن الحركة الحسيدية وفرعها «حباد» . ينطبق هذا بصفة خاصة على كل أولئك الذين كتبوا ويكتبون عنها بالإنجليزية، فهم يتكتمون على الأدلة الصارخة فى النصوص الحسيدية القديمة، وكذلك الملابسات السياسية التى أعقبتها فيما بعد، والتى تبرز أمام أعين حتى القارىء العادى للصحافة العبرية الإسرائيلية، التى ينشر على صفحاتها حاخام لوبافيتشر، وزعماء حسيديون آخرون أكثر التصريحات المتعطشة للدماء ضراوة، وكذلك التعاليم المعادية لكل العرب.

أحد المخادعين الكبار فى هذا المجال، النموذج الجيد لقوة الخداع، هو مارتن بوبر، الذى تمتدح أعماله الغزيرة كل الحركة الحسيدية (بما فيها حباد) دون أدنى تلميح لعقائد الحسيدية المتعلقة بغير اليهود. تصبح جريمة الخداع أكبر ذا عرفنا أن مدائح بوبر للحسيدية نشرت أولا بالألمانية فى فترة صعود لقومية الألمانية، وارتقاء النازية للسلطة. وفى حين يعارض بوبر النازية ظاهرياً ، نراه يمجد حركة تعتنق وتدعو فعليا لأفكار حول غير اليهود ليست بعيدة عن العقائد النازية حول اليهود .

قد يجادل المرء، طبعاً، بأن الحسيديين اليهود قبل خمسين أو سبعين عاماً كانوا هم الضحايا، و«الكذبة البيضاء» لصالح الضحية مبررة. لكن عواقب الخداع لا تحصى ولاتعد، فقد تُرجمت أعمال بوبر إلى العبرية، وجعلت عنصراً قوياً فى التربية العبرية فى إسرائيل، وأسهمت كثيراً فى ازدياد سلطة الزعماء الحسيديين المتعطشين للدماء، وكانت، لهذا السبب، عاملاً هاماً من عوامل صعود الشوفينية الإسرائيلية وكراهية كل غير اليهود.

وإذا فكرنا بالبشر الكثيرين الذين ماتوا متأثرين بجراحهم لأن ممرضى الجيش الإسرائيلى، بتحريض من الدعاية الحسيدية، رفضوا إسعافهم، فإن مسؤولية ثقيلة تقع على عاتق مارتن بوبر.

ينبغى التذكير، هنا، أن بوبر فى معرض مداهنته للحسيدية بز مثقفين يهود آخرين بقدر كبير، خاصة أولئك الذين يكتبون بالعبرية (أو اليديشية سابقاً) أو حتى بلغات أوروبية ولكن لجمهور يهودى. ففى

المسائل المتعلقة بالمصلحة اليهودية الداخلية، كان هناك ذات يوم قدر كبير من النقد المبرر للحركة الحسيدية: كراهيتهم للنساء Misogynism (التى فاقت الكراهية المألوفة لدى اليهودية الأرثذوكسية) انغماسهم فى الشراب، والولاء الأعمى «لحاخاماتهم المقدسين» الوراثيين الذين يبتزون نقودهم، والخرافات الكثيرة التى تميزهم. تعرضت تلك الميول السلبية وغيرها للنقد، لكن معالجة بوبر العاطفية ، التضليلية، الرومانسية هى التى ربحت الجولة، خاصة فى الولايات المتحدة وإسرائيل، نظراً لتناغمها مع الإعجاب الشمولى بكل ما هو «يهودى خالص» ولأن أوساطاً يسارية معينة اعتنقت هذا الموقف بفعل نفوذ بوبر القوى بداخلها .

لكن بوبر لم يكن وحيداً فى هذا المجال، رغم أنه، كما أرى، أكثرهم سوءاً من ناحية الشر الذى بذره والنفوذ الذى خلفه وراءه، هناك عالم الاجتماع صاحب النفوذ الكبير وعالم الدراسات التوراتية يحزقيل كاوفمان، المدافع عن الإبادة الجماعية وفق النموذج المذكور فى سفر يوشع، والفيلسوف المثالى هوغو شموئيل بيرغمان، الذى دعا منذ زمن يعود إلى عامى ١٩١٤، ١٩١٥ لطرد جميع الفلسطينيين إلى العراق، وكثير غيرهم، لقد كانوا جميعاً أصحاب مظاهر خارجية «حمائمية» لكنهم وظفوا مبادىء فكرية يمكن استغلالها بأكثر المعانى المعادية للعرب تطرفا ، واستهوتهم جميعا ، الصوفية الدينية التى تشجع التضليل، وظهروا كأشخاص طيبين، حتى مع دفاعهم عن الطرد ، والعنصرية، والإبادة، بدوا كأنهم لا يستطيعون إيذاء ذبابة، ولهذا السبب كان عملهم التضليلى أعظم شأناً.

لذلك يجب أن نكافح ضد تمجيد الإنسانية، التى لا يدعو لها الحاخامات وحسب، بل أولئك المفترض أنهم أعظم وأكثر علماء اليهودية نفوذاً أيضا. وضد الورثة المحدثين للأنبياء الزائفين والكهنة الكذابين، وينبغى أن نردد، حتى فى مجابهة رأى بالإجماع فى إسرائيل وبين غالبية اليهود فى بلدان مثل الولايات المتحدة، تحذير لوكريتوس بألا يفرّط الإنسان برصانته لصالح .طب الزعماء الدينيين :«إلى مثل تلك الذرى من الشر تسوق الديانة الناس» . الدين ليس دائما أفيون الشعب (كما قال ماركس) لكنه قد يكون كذلك أحياناً، عندما يستخدم بطريقة مراوغة لا تمثل طبيعته الحقيقية، ولذا فإن المثقفين والعلماء الذين يقومون بهذا العمل يتقمصون شخصية مهربى الأفيون .

وقد نخرج من هذا التحليل بخلاصة أخرى أكثر عمومية حول أكثر وسائل الحض على الشر فعالية ورعباً: أن يغش الإنسان ويخادع، بينما يحافظ على يديه نظيفتين من العنف، وأن يفسد شعوباً برمتها ويسوقها إلى القمع والقتل (إذ لم يعد ثمة مجال للشك بأن أعمال القمع المرعبة فى الضفة الغربية يحركها التعصب الدينى اليهودى). كذلك يبدو أن معظم الناس يفترضون بأن أبشع أنواع الأنظمة الاستبدادية، هى تلك التى توظف الإكراه الجسدى، ويشيرون بهذا الصدد إلى رواية «١٩٨٤» لجورج أورويل كنموذج لهذا النظام، لكننى أعتقد أن هذا الرأى الشائع على ضلال كبير، وبأن حدس إسحق أسيموف، الذى تدّوت قصص الخيال العلمى التى يكتبها أبشع أشكال القمع على الدوام، أكثر صدقا فى وصف مخاطر الطبيعة

الإنسانية، وخلافاً لمثقفى ستالين المطيعين، فان الحاخامات، وحتى العلماء الذين نقدناهم، ومعهم كل عصبة متوسطى الثقافة الصامتين مثل الكتاب والصحافيين والشخصيات العامة (الذين يكذبون ويخدعون أكثر من غيرهم) أولئك لا يجابهون خطر الموت أو معسكرات الاعتقال ، بل الضغط الاجتماعى فقط ، وهم يكذبون بدافع الوطنية اعتقاداً منهم أن من واجبهم الكذب لصالح ما يرونه مصلحة يهودية، أولئك كذبة وطنيون، ترغمهم نفس الوطنية على الصمت عندما يشاهدون التمييز والقمع ضد الفلسطينيين .

إضافة لذلك، لمجابه فى الوقت الحالى ولاءً للجماعة (اليهودية) يأتى من خارجها، وهو، أحياناً، أكثر مكراً. يعتنق الكثير من غير اليهود (بما فى ذلك رجال الدين المسيحيين وبعض العوام المتدينين وكذلك بعض الماركسيين فى جميع المنظمات الماركسية) الرأى الغريب القائل إن أحد أشكال «التكفير» عما أصاب اليهود من اضطهاد ، تعنى عدم الحديث عن الشر الذى يمارسه اليهود أنفسهم، بل المشاركة فى «الكذب الأبيض» حول اليهود. كما أن الاتهام الفج بالعداء للسامية (أو بالنسبة لليهود كراهية النفس) الموجه لأى شخص يحتج على التمييز ضد الفلسطينيين، أو يظهر أى حقيقة حول الديانة اليهودية، أو الماضى اليهودى تتناقض مع «الصورة المتفق عليها» يأتى محملاً بقدر أكبر من العداء من جانب «أصدقاء اليهود» أكثر مما يأتى من جانب اليهود أنفسهم. لقد سمح وجود هذه المجموعة ونفوذها الكبير فى كل البلدان الغربية، وخاصة فى الولايات المتحدة (وكذلك بلدان أخرى ناطقة بالانجليزية)، للحاخامات وعلماء

اليهودية ليس ببذر أكاذيبهم دون معارضة وحسب، بل والحصول على مساعدة يعتد بها أيضا.

من ناحية أخرى، استبدل كثير من المعادين المعلنين للستالينية وثن عبادتهم بوثن آخر. فهم يميلون لتأييد العنصرية اليهودية والتعصب بحرارة ملتهبة وزيف أكثر مما أبداه أخلص الستالينيين من ولاء في الماضي. ورغم أن ظاهرة التأييد الأعمى، و«الستاليني» لأي شر طالما كان يهوديا تعززت بصفة خاصة منذ عام ١٩٤٥، عندما أصبحت حقيقة إبادة اليهود الأوروبيين معروفة، إلا أن من الخطأ الافتراض بأنها بدأت في ذلك الوقت فقط. نقيضاً لذلك، يرجع تاريخها إلى زمن بعيد جدا، خاصة في الحلقات الديمقراطية الاشتراكية، لقد كان موسى هيس، أحد أوائل أصدقاء ماركس، كما كان معروفا على نطاق واسع ويحظى باحترام كبير كأحد أوائل الاشتراكيين في ألمانيا، رغم ذلك كشف نفسه في وقت لاحق كعنصري يهودي متطرف، ولم تكن أفكاره المنشورة عام ١٨٦٨ حول (العرق اليهودي النقي «بعيدة عن فكرة»«العرق الآري النقي). لكن الاشتراكيين الألمان، الذين ناضلوا ضد العنصرية الألمانية، التزموا جانب الصمت حيال هذه العنصرية اليهودية. وفي بريطانيا، في عام ١٩٤٤ خلال الكفاح الفعلي ضد هتلر، وافق حزب العمال البريطاني على خطة لطرد الفلسطينيين من فلسطين، كانت تلك الخطة مشابهة لخطط هتلر المبكرة (حتى عام ١٩٤١) بشأن اليهود، تمت مواقف «نسب وقربى» تجاه كل سياسة مارستها إسرائيل أكثر مما أظهر المحافظون بتأييدهم لأيان سميث. لكن المحرمات الستالينية في بريطانيا أكثر قوة لدى

اليسار مما هى لدى اليمين، ولذا لا يحدث نقاش أبدا حتى عندما يؤيد حزب العمال حكومة بيغن. يسود فى الولايات المتحدة وضع مشابه، ومجدداً، فإن الليبراليين الأميركيين هم الأسوأ.

لا يتسع المجال، هنا لتعرية كل النتائج السياسية لهذا الوضع، بيد أننا يجب أن نجابه الواقع: فى كفاحنا ضد تعصب وعنصرية الديانة اليهودية فإن أخطر خصومنا ليسوا من العنصريين اليهود فقط (ومن مستخدمى العنصرية) بل غير اليهود أيضا، أولئك الذين ينظر إليهم فى مجالات أخرى، وبطريقة زائفة، كما اعتقد، «كتقدميين» .

القسم الثانى

بنية الصرح التشريعى

بعض المفاهيم الخاطئة

هذا الجزء من المقال مكرس لتقديم وصف أكثر تفصيلاً، للبنية اللاهوتية- القانونية لليهودية الكلاسيكية [1] . ولكن قبل الشروع فى ذلك ثمة ضرورة لتبديد بعض المفاهيم الخاطئة المتفشية فى كل اللغات الأجنبية تقريباً (أى غير العبرية) حول اليهودية، بصفة خاصة من جانب من يروجون فى الوقت الحالى عبارات تتمشى مع الموضة السائدة مثل: «التقاليد اليهودية - المسيحية» أو «القيم المشتركة لأديان التوحيد».

(١) ملاحظة المحرر (النص الانجليزى) كما ذكر فى الهامش العاشر فى القسم الأول، يستخدم الكاتب مصطلح «اليهودية الكلاسيكية» للإشارة لليهودية الحاخامية فى الفترة من ٨٠٠ بعد الميلاد حتى نهاية القرن الثامن عشر. تتوافق هذه الفترة عموماً مع القرون الوسطى اليهودية، لأن الأوضاع القرووسطية استمرت بالنسبة لمعظم الطوائف اليهودية فترة أطول مما عرفته شعوب أوروبا الغربية، أى حتى فترة الثورة الفرنسية، ولذا ما يطلق عليه الكاتب تسمية «اليهودية الكلاسيكية» يمكن اعتباره «اليهودية القرووسطية».

ولأسباب تتعلق بضيق المجال، سأعالج أهم الأوهام الشائعة فقط:أن الـديـانـة اليهـودية هى، وكانت دائما، ديـانة توحيد كما يعرف فى الوقت الراهن كثير من العلماء التوراتيين، وكما تبين أى قراءة متأنية للعهد القديم بسهولة، فإن هذا الرأى اللاتاريخى خاطىء تماماً. هناك فى كثير من، إن لم نقل فى كل أسفار العهد القديم حضور وسلطة لأرباب آخرين معترف بهم صراحة، لكن يهوه، أقوى الأرباب [1]، غيور جداً من منافسيه ويحظر على شعبه عبادتهم [2]. ولا يظهر إلا فى نهاية التوراة فقط، لدى بعض الانبياء المتأخرين، إنكار لوجود جميع الأرباب ما عدا يهوه [3]. وما يعنينا هنا ليس اليهودية التوراتية بل الكلاسيكية، ومن الواضح تماماً، رغم عدم إدراك هذا الأمر على نطاق واسع، إن الثانية خلال بضع مئات من سنواتها الأخيرة، كانت بمعظمها بعيدة تماما عن التوحيد الخالص. وهذا ينطبق أيضا على الحقائق المهيمنة فى الأرثذوكسية اليهودية فى الوقت الراهن، وهى استمرار مباشر لليهودية الكلاسيكية، لقد جاء انحطاط التوحيد من خلال انتشار الصوفية اليهودية (القبالاه) التى تطورت فى القرنين الثانى والثالث عشر، وحققت فى أواخر القرن السادس عشر انتصاراً كاملاً تقريباً فى كل مراكز اليهودية، كما احتاجت حركة التنوير اليهودية، التى نشأت بسبب أزمة اليهودية الكلاسيكية، للنضال ضد هذه الصوفية وتأثيرها أكثر من

(١) الخروج (١١- ١٥) .

(٢) نفس المصدر (٢٠ - ٣ - ٦)

(٣) أرميا (١٠) تتردد نفس النغمة لاحقا فى أشعيا، انظر أشعيا (٤٤).

النضال ضد أى شىء آخر، ورغم ذلك، ظل نفوذ القبالاه فى اليهودية الأرثذوكسية، خاصة بين الحاخامات، مهيمناً [1]. إن حركة غوش إيمونيم، مثلاً، تستلهم الأفكار القبالية إلى حد كبير.

ولذا تبدو معرفة وفهم هذه الأفكار مهمة جداً لسببين:أولاً، دون المعرفة لن يستطيع الإنسان فهم المعتقدات الحقيقية لليهودية فى نهاية فترتها الكلاسيكية. ثانياً، لأن تلك الأفكار تلعب دوراً سياسياً هاماً فى الوقت الحالى، بقدر ما تشكل جزءاً من منظومة المعتقدات الصريحة لعديد من الساسة المتدينين، بما فيهم معظم زعماء غوش إيمونيم، ولها تأثير غير مباشر على كثير من الزعماء الصهاينة فى كل الأحزاب، بما فيها اليسار الصهيونى.

لا يحكم الكون، حسب القبالاه، من جانب إله واحد، بل من جانب أرباب عدة ذوى شخصيات وتأثيرات مختلفة تنبثق من علة أولى بعيدة مبهمة. وإذا أقصينا الكثير من التفاصيل جانباً، نستطيع تلخيص المنظومة على النحو التالى:هناك أولاً إله يدعى «الحكمة» أو «الأب» ثم إلهة تدعى «المعرفة» أو «الأم» وقد انبثقا أو ولدا من العلة الأولى. انبثق عن زواج الاثنين زوج من الآلهة الأصغر: «الابن»، يدعى أيضاً بأسماء كثيرة أخرى مثل «الوجه الأصغر» أو «المبارك المقدس»، و«الابنة» تدعى أيضا

(١) نظرية القبالاه تقتصر، بالطبع، على فئة قليلة، وقد حصرت دراستها التفصيلية فى فئة العلماء. وفى أوروبا، خاصة ما بعد العام ١٧٥٠ ، أتخذت إجراءات مشددة للحفاظ على سريتها، ومنع دراستها إلا من جانب علماء ناضجين وتحت مراقبة حازمة. ولم تكن لدى الجماهير اليهودية غير المتعلمة فى أوروبا الشرقية أدنى معرفة حقيقية بالنظرية القبالية، لكن القبالاه تسللت إليهم على هيئة خرافات وممارسات عجائبية.

«السيدة» (أو «ماترونيت» وهى كلمة مشتقة من اللاتينية) و «شخينه» أو «الملكة».. إلخ، ثمة ضرورة لتوحيد «الابن» و «الابنة» إلا أن مكائد الشيطان تحول دون ذلك، وهو يمثل فى هذه المنظومة شخصية هامة جداً ومستقلة.

وقد تولت الخلق العلة الأولى كى تتيح لهما التوحد، لكنهما أصبحا أكثر ابتعاداً من السابق بسبب السقوط (أو الهبوط) وتمكن الشيطان، فعلا، من الاقتراب كثيراً من «الابنة» المقدسة وحتى من اغتصابها (سواء بالرمز أو الواقع. تختلف الآراء هنا) وقد خلق الشعب اليهودى لسد القطيعة التى أحدثها أدم وحواء، وفى جبل سيناء تحقق هذا الأمر لفترة معينة: «الابن»، الذى تجسّد فى موسى، توحد بالابنة «شخينة». ولكن، لسوء الحظ، تسببت خطيئة العجل الذهبى بالانفصال مرة أخرى، لكن توبة الشعب اليهودى رتقت الشق نوعاً ما .

بنفس القدر، يقترن كل حدث فى التاريخ التوراتى اليهودى باتحاد أو انفصال الزوجين السماويين. كان الاجتياح اليهودى لفلسطين الكنعانية وبناء الهيكل الأول والثانى ممكناً بسبب اتحادهما فقط. كما أن دمار الهيكلين، ونفى اليهود عن الأرض المقدسة هى علامات خارجية ليست لانفصالهما وحسب، بل ولفجور حقيقى «فجور على غرار الآلهة الغرباء» حتى تكاد تسقط «الابنة» تحت سيطرة الشيطان، ويأخذ «الابن» شخصيات أنثوية شيطانية مختلفة إلى فراشه، بدلاً من زوجته الأصلية .

إن واجب اليهود الأتقياء، من خلال صلواتهم وأعمالهم الدينية،

إعادة الاتحاد السماوى كاملاً، فى شكل اتحاد جنسى بين الإلهين الذكر والأنثى[1]. لذا، قبل معظم الأعمال الطقسية التى ينبغى أن يقوم بها كل يهودى ورع عدة مرات فى اليوم، ترتل هذه الصيغة القبالية: «لأجل الاجتماع (الجنسى) للمبارك المقدس وشخينته» [2] كما أن صلوات الصباح اليهودية مرتبة أيضا لتعزيز هذا الاتحاد الجنسى، ولو مؤقتا فقط. وتنسجم أجزاء متتالية من الصلاة صرفياً مع المراحل المتتالية من التوحد: فى لحظة معينة تقترب الألهة مع وصيفاتها، وفى لحظة أخرى يضع ذراعه حول عنقها ويربت على نهديها، وفى النهاية يفترض أن يحدث الاتصال الجنسى.

هناك صلوات أخرى أو أعمال دينية، كما تفسرها القبالاه، مخصصة لتضليل الملائكة (يُتصورون كآلهة دنيا ذات قدر من الاستقلالية) أو لاستعطاف الشيطان، وفى لحظة معينة من صلوات الصباح، تُنطق بعض الآيات بالآرامية [3] (وليس بالعبرية المألوفة أكثر) ويُفترض بها أن تكون وسيلة لخداع الملائكة الذين يشغلون الأبواب التى تعبرها الصلوات إلى السماء، وبمقدورهم منع صلوات الأتقياء. تفهم الملائكة العبرية فقط وتثير

---

(١) يعتقد كثير من المتصرفين اليهود المعاصرين أن نفس النهاية قد تتحقق بسرعة أكبر بالحرب ضد العرب، وطرد الفلسطينيين، أو حتى إقامة الكثير من المستوطنات اليهودية فى الضفة الغربية. كما أن الحركة المتنامية لبناء الهيكل الثالث تقوم أيضاً على مثل هذه الأفكار.

(٢) الكلمة العبرية المستخدمة هنا - ييهود - تعنى حرفياً اتحاد - فى - عزلة. ونفس الكلمة تستخدم فى النصوص الشرعية (التى تتعاطى مع الزواج.. الخ) للإشارة إلى الاتصال الجنسى.

(٣) ما يدعى قيدوشاه شليشى (القداسة الثالثة) أدخلت إلى صلاة أوفاليتزيون فى نهاية فرائض الصباح الدينية.

الآيات الآرامية حيرتها ولأنها غبية نوعا ما (يفترض بأنها أقل مهارة من القباليين) تفتح الأبواب فى لحظة حيرتها فتدخل كل الصلوات، بما فيها التى بالعبرية من الأبواب.

أو فلنأخذ مثلاً آخر: يغسل اليهودى الورع يديه قبل تناول الطعام وبعده بطريقة طقسية متلفظا بتبريكات خاصة. لكنه يعبد فى إحدى المرتين الإله، بتعزيز الاتحاد السماوى «للابن» و «الابنة»، وفى المرة الثانية يعبد الشيطان، الذى يحب الصلوات اليهودية والأعمال الطقسية حباً جماً، حتى أنه عندما يحصل على القليل منها تشغله لفترة وتنسيه مضايقة «الابنة» السماوية.

كما يعتقد القباليون فى الواقع أن بعض الأضحية التى جرى إحراقها فى الهيكل كانت تقدمة للشيطان، مثل تقديم سبعين ثوراً كأضحية خلال السبعة أيام من عيد الخيام [1] (العُرُش) التى يفترض بأنها قدمت للشيطان حاكم غير اليهود لإشغاله حتى لا يتدخل فى اليوم الثامن [2]، عندما تقدم الأضحية للرب، ومن الممكن تقديم الكثير من الأمثلة المشابهة فى هذا السياق.

---

(١) عدد (٢٩) .

(٢) سلطة الشيطان، وعلاقته بغير اليهود، تتجلى فى عادة رائجة، نشأت بتأثير من القبالاه فى عديد من الطوائف اليهودية منذ القرن السابع عشر، المرأة اليهودية العائدة من حمامها الطقسي الشهرى من أجل الطهارة (الذى يصبح الاتصال الجنسى مع زوجها بعده إلزامياً) يجب أن تحاذر ملاقاة أحد أربعة كائنات شيطانية: أحد الأغيار، أو خنزير، أو كلب ، أو حمار. وإذا حدث وقابلت أحدهم يجب أن تعيد الاستحمام مرة ثانية. دافع عن هذه العادة (بين آخرين) كتاب «شيفيت موسار» وهو أحد كتب السلوك الأخلاقى اليهودى، نشر أول مرة عام ١٧١٢ ، وكان أحد أكثر الكتب رواجاً بين اليهود فى أوروبا الشرقية والبلدان الإسلامية، حتى أوائل هذا القرن، وما زال يقرأعلى نطاق واسع فى بعض الأوساط الأرثذوكسية.

والآن ينبغى إبداء عدة ملاحظات حول هذه المنظومة ومدى أهميتها فى سبيل فهم صحيح لليهودية فى فترتها الكلاسيكية، وانخراطها السياسى فى الوقت الحالى فى الممارسة الصهيونية .

أولاً، بصرف النظر عما يمكن قوله عن هذه المنظومة القبالية، لا يمكن وصفها بالتوحيدية، إلا إذا قبل الإنسان الهندوسية والديانة الإغريقية- الرومانية المتأخرة، وحتى ديانة مصر القديمة باعتبارها ديانات توحيدية.

ثانياً، تتجلى الطبيعة الحقيقية لليهودية الكلاسيكية من خلال السهولة التى قبلت بها هذه المنظومة، إن الإيمان والمعتقدات (ما عدا المعتقدات القومية) تلعب دوراً صغيراً جداً فى اليهودية الكلاسيكية، أما ما يحتل الأهمية الكبرى فهو العمل الطقسى، وليس الدلالة التى يحملها أو الإيمان المقترن به. ذلك عندما ترفض أقلية من اليهود المتدينين قبول القبالاه فى وقت ما (كما يحدث فى الوقت الحاضر) يستطيع الإنسان رؤية بضعة يهود يقومون بعمل طقسى معين اعتقاداً منهم بأنه فعل عبادة للرب، بينما يؤدى الأخرون نفس العمل بنية استرضاء الشيطان. ولكن طالما يؤدون نفس العمل فإنهم يصلون معا، ويظلون أعضاء فى جماعة أداء الصلاة، بصرف النظر عن درجة امتعاضهم من بعضهم البعض، ولكن إذا حدث بدلاً من اختلاف النية المقترنة بغسل الأيدى مثلاً، وحاول أى شخص أن يدخل ابتكاراً جديداً [1] على طريقة الغسل، فمن المؤكد أن يحدث عندئذ الانشقاق

(١) يوصف هذا الزمر بتفاصيل دقيقة جداً، مثلا الغسل الطقسى لليدين يجب أن يتم تحت صنبور، وكل يد تغسل على حدة من ماء فى أبريق (أصغر حجم ممكن) يمسك باليد الأخرى، وإذا كانت اليدين قذرتين فعلاً فمن المستحيل تنظيفها بهذه الطريقة، ولكن مثل هذه الاعتبارات العملية لا مكان لها هنا، تأمر اليهودية الكلاسيكية باتباع عدد كبير من هذه الطقوس التفصيلية، التى توليها القبالاه أهمية عظمى. هناك مثلاً كثير من القواعد الدقيقة المتعلقة بالتصرف فى المرحاض. اليهودى الذى يقضى حاجته البشرية فى الخلاء يجب ألا يفعل ذلك فى اتجاه شمال جنوب، لأن الشمال مقترن بالشيطان.

الحقيقى. ينطبق الشىء نفسه على الصيغ المقدسة لليهودية. الشرط أن يبقى نظام الكلمات كما هو، أما المعنى فإنه يحتل أهمية ثانوية فى أفضل الأحوال. على سبيل المثال، أكثر الصيغ اليهودية قدسية: «اسمعى يا إسرائيل، الرب إلهنا، الرب واحد» التى تتلى عدة مرات فى اليوم من جانب كل يهودى ورع قد تعنى فى الوقت الحاضر شيئين متضاربين. ربما تعنى أن الرب فعلياً «واحد» لكنها قد تعنى أيضاً أن درجة معينة من اتحاد الإلهين الذكر والأنثى قد تحققت، أو يتم تعزيزها بالقراءة المناسبة لهذه الصيغة. رغم ذلك عندما يتلو اليهود فى جماعات الصلاة الإصلاحية هذه الصيغة بأى لغة أخرى غير العبرية، يشعر جميع الحاخامات الأرثذوكس، سواء الذين يؤمنون بالوحدانية، أو الاتحاد الجنسى السماوى، بالغضب الشديد.

أخيراً، يحظى كل ما تقدم بأهمية فائقة فى إسرائيل (ومراكز يهودية أخرى) حتى فى الوقت الحالى. إن الأهمية الهائلة المعطاة للصيغ (مثل قانون القدس) وأفكار ودوافع غوش إيمونيم، والإلحاح الكامن وراء كراهية غير اليهود الذين يعيشون الآن فى فلسطين، والموقف القدرى تجاه كل محاولات السلام من جانب الدول العربية، كلها إضافة إلى اتجاهات أخرى لسياسة الصهيونية، تثير حيرة كثير من أصحاب النوايا الطيبة، الذين يملكون فكرة زائفة عن اليهودية الكلاسيكية، لكنها تصبح قابلة للفهم على ضوء هذه الخلفية الصوفية الدينية.

ومع ذلك، ينبغى التحذير من السقوط فى التطرف المضاد، ومحاولة

تفسير كل السياسات الصهيونية استناداً إلى مصطلحات هذه الخلفية. لاشك أن تأثيرات السياسة الصهيونية متباينة، فقد كان بن غوريون خبيراً فى استغلالها، بطريقة يمكن السيطرة عليها، لخدمة غايات محددة. وبظل بيغن أصبح الماضى يمارس نفوذاً أكبر على الحاضر. ولا ينبغى أن يتجاهل الإنسان الماضى وتأثيره، إذ بمعرفته، فقط، يتمكن من استشفاف سلطته الصلدة.

تفسير التوراة

سيُرى من الأمثلة المطروحة أن ما يعتقد معظم الناس المطّلعين بأنهم يعرفونه عن اليهودية مضلل جداً، إلا إذا كان بمقدورهم قراءة العبرية. ويمكن العثور على كل التفاصيل المذكورة أعلاه فى النصوص الأصلية، وأحياناً، فى كتب حديثة بالعبرية موجهة لقارىء مختص. أما البحث عنها باللغة الإنجليزية فهو أمر لا جدوى منه، حتى عندما يشوه حذف أفكار هامة كهذه الصورة كلها.

هناك مفهوم آخر خاطىء حول اليهودية، وهذا المفهوم شائع بصفة خاصة بين المسيحيين، أو من يخضعون للثقافة والتقاليد المسيحية بقدر كبير. الفكرة المضللة أن اليهودية: «ديانة توراتية» وأن العهد القديم له فى اليهودية نفس المكانة المركزية والسلطة الشرعية التى يحظى بها الإنجيل بالنسبة للبروتستانت، وحتى المسيحية الكاثوليكية. مرة أخرى، يقترن الأمر هنا بمسألة التفسير. وقد رأينا فى مسائل الايمان بعداً كبيراً بين مواقف

مختلفة. ويصدق العكس تماماً فيما يتعلق بالتفسير الشرعى للنصوص المقدسة. التفسير، هنا، جامد، ولكن فيما يتعلق بالتلمود وليس التوراة[1]. إن الكثير من الآيات التوراتية التى تأمر بالأعمال الدينية والالتزامات «مفهومة» من جانب اليهودية الكلاسيكية، والأرثذوكسية فى يومنا هذا، بطريقة تختلف عن، وحتى تتناقض، مع معناها الحرفى كما يفهمه المسيحيون، أو غيرهم من قراء العهد القديم، الذين لا يرون إلا النص العادى بصورته الظاهرية فقط . ويوجد نفس الاختلاف الآن فى إسرائيل بين المتعلمين فى مدارس دينية يهودية، والمتعلمين فى مدارس «علمانية» عبرية، الذين يتعلمون المعنى الظاهرى لنص العهد القديم .

يمكن استيعاب هذه المسألة الهامة عن طريق الأمثلة فقط. وسنلاحظ أن اختلافات المعنى لا تسير جميعاً فى نفس الاتجاه، من زاوية علم الأخلاق. يزعم المدافعون عن اليهودية أن تفسير التوراة، الذى انبثق أصلا عن الفريسيين ، واتخذ شكلاً ثابتاً ونهائياً فى التلمود ، أكثر ليبرالية من المعنى الحرفى الظاهرى للنص. لكن بعض الأمثلة التالية ستبين لنا مدى بعد هنا الزعم عن الحقيقة.

١ - فنبدأ بالوصايا العشر: تؤخذ الوصية الثامنة «لا تسرق» (الخروج، ٢٠، ١٥) كتحريم «للسرقة» (أى اختطاف) شخص يهودى. والسبب، حسب التلمود ، أن كافة الأعمال المحظورة من جانب الوصايا

---

(١) «التفسير» تعبيرى الخاص. اليهودية الكلاسيكية (والأرثذوكسية فى الوقت الحالى) ترى ذلك باعتباره المعنى التلمودى، وحتى إذا كان مغايراً للمعنى الحرفى، فإنه الممارس دائماً.

العشر خطايا كبرى، بينما سرقة متاع ما ليست خطيئة كبرى (فى نفس الوقت تبيح الشريعة التلمودية اختطاف اليهود للأغيار) وعلى هذا الأساس جاء التفسير السابق. ولكن ثمة جملة أخرى مشابهة تماما للوصية الثامنة «لا تسرق»(اللاويون ١٩، ١١) بيد أنها حافظت على معناها الحرفى الظاهرى فى النص.

٢ - هناك المثل الشائع جداً «العين بالعين والسن بالسن»(الخروج ٢١، ٢٤) لكنها تفسر بمعنى «عين مال مقابل عين»أى دفع غرامة بدلاً من التعرض للعقاب البدنى.

٣ - هناك، أيضا، مثل يبين قلب المعنى الحرفى الظاهرى إلى نقيضه تماماً، إذ يحذر النص التوراتى صراحة من اتباع قضية غير عادلة «لا تتبع الكثيرين إلى فعل الشر، ولا تجب فى دعوى مائلا وراء الكثيرين للتحريف» (الخروج ٢٣) هذه العبارة تقتطع من سياقها وتفسر كتحريض لاتباع رأى الأغلبية.

٤ - ثمة فقرة تنص : «لا تطبخ جديا بلبن أمه» (الخروج ٢٣، ١٩) وهى تُفسّر كتحريم لخلط أى نوع من أنواع اللحم بأى نوع من الحليب أو منتجات الألبان. وبما أنها تتكرر فى موضعين آخرين من الأسفار الخمسة الأولى، فإن تكرارها يفسر كتحريم ثلاثى الأبعاد: (١) منع اليهود من أكل خليط كهذا (٢) أو طبخه لأى غرض كان (٣) أو التمتع به والاستفادة منه بأى طريقة كانت [١].

---

(١) حسب قصة غير معروفة النسب، لاحظ أحد المهرطقين اليهود فى القرن التاسع عشر في هذا السياق أن الوصية المشهورة «لاتزن» تكررت مرتين فقط «لذا يفترض أن الإنسان من أكل الزنى أو طبخه، أما التمتع به فحلال».

٥ - فى عدد لا يحصى من الحالات يتم تفسير تعبيرات مثل «جارك» و «الغريب»، أو حتى «الإنسان» بالمعنى الشوفينى الحصرى، أى تعنى اليهود فقط، ولذا فإن العبارة الشهيرة «بل تحب قريبك كنفسك» (١) (اللاويون ١٩ ، ١٨) تفسر فى اليهودية الكلاسيكية (واليهودية الأرثذوكسية حاليا) كأمر بأن يحب اليهودى قريبه اليهودى، وليس أى جار آخر.

وبالقدر نفسه، فإن عبارة «لا تهمل دم جارك» يفترض بها أن تعنى ألا يقف الإنسان (اليهودى) لا مبالياً عندما تتعرض حياة (دم) جاره اليهودي للخطر. لكن سنلاحظ فى الملحق منع اليهودى عموماً من إنقاذ حياة غير اليهودى لأنه «ليس قريبك»، أما الوصية البالغة الكرم التى تحض على ترك فضلات الحقل والكرم «للفقير والغريب» (اللاويون ٩، ١٠) فإنها تفسر كإشارة إلى الفقير اليهودى ومعتنقى الديانة اليهودية فقط. كذلك فإن التشريعات التحريمية المتعلقة بالجثث تبدأ بعبارة: «هذه هى الشريعة، إذا مات إنسان فى خيمة، فكل من دخل الخيمة وكل من كان فى الخيمة يكون نجسا سبعة أيام» (العدد ١٩ ، ١٢) لكن كلمة إنسان (أدام) تفسّر بأنها تعنى «اليهودى» ولذا فإن الجثة اليهودية محرّمة (أى غير نظيفة ومقدسة فى آن) استناداً إلى هذا التفسير .

---

(١) كلمة «ريعخا» العبرية ترجمتها طبعة الملك جيمس (ومعظم الترجمات الإنجليزية الأخرى) نوعاً ما بطريقة غير دقيقة باعتبارها تعنى «جارك» انظر صموئيل الثانى (١٦ - ١٧) حيث تترجم نفس الكلمة فى طبعة الملك جيمس بصورة أدق «صديقك».

وهناك دائماً لدى اليهود المتدينين احتراماً عجائبياً هائلاً تجاه الجثث والمقابر اليهودية، لكنهم لا يحترمون الجثث والمقابر غير اليهودية، ولذا أزيلت مئات المقابر الإسلامية، بالمعنى الحرفى، فى إسرائيل (فى إحدى المرات لبناء فندق هيلتون تل أبيب) دون احتجاج ولكن حدثت ضجة كبرى عندما تضررت المقبرة اليهودية على جبل الزيتون بظل الحكم الأردنى. الأمثلة بهذا الصدد لا تعد. وسنناقش فى الملحق الآثار اللاإنسانية المترتبة على هذا النوع من التفسير .

٦ - أخيراً، فلننظر إلى أحد أجمل المقاطع التنبؤية، إدانة أشعيا الرائعة للنفاق والطقوس الفارغة ونصيحته باتباع آداب السلوك العامة. إحدى الفقرات (أشعيا ١، ١٥) «وعندما تبسطون أيديكم سأخفى عينىّ عنكم، وتتلون الصلوات الكثيرة لن أسمعها: أيديكم مليئة بالدم». وبما أن الكهنة اليهود«يبسطون أيديهم» لمباركة الناس أثناء الصلاة، يفسّرونها بأن الكاهن الذى يرتكب جريمة قتل بالصدفة، لا يصبح مؤهلاً «لبسط يديه» للتبريك (حتى مع التوبة) لأنها «مليئة بالدم».

يتضح من هذه الأمثلة أن اليهود الأرثلوكس الآن (أو كل اليهود ما قبل عام ١٧٨٠) عندما يقرأون التوراة، فأنهم يقرأون فى الواقع كتاباً مختلفاً، بمعانى تختلف تماماً عن التوراة التى يقرأها غير اليهود، أو اليهود غير الأرثذوكس. ويصدق هذا التمييز حتى فى إسرائيل، رغم أن كليهما يقرأ النص بالعبرية، وقد بيّنت التجربة، خاصة منذ عام ١٩٦٧ هذا الأمر بصورة متكررة، لقد حاول كثير من اليهود فى إسرائيل (أو فى مكان آخر)

الذين لا يعتنقون اليهودية الأرثذوكسية، ولديهم بعض الاطلاع على الدين، تذنيب الإسرائيليين الأرثذوكس (أو اليمين المتطرف الخاضع بقوة للدين) بسبب مواقفهم اللاإنسانية تجاه الفلسطينيين، وذلك من خلال الاستشهاد بمقاطع من التوراة وما تعنيه بصورتها الإنسانية الظاهرية، ولكن لم يكن لها أدنى تأثير على أتباع اليهودية الكلاسيكية لأنهم لا يستوعبون ما يقال لهم، لأن النص التوراتي كما يفهمونه يعني شيئاً مختلفا .

وإذا كانت فجوة التواصل هذه قائمة في إسرائيل، حيث يقرأ الناس العبرية، ويستطيعون على الفور الحصول على معلومات دقيقة، إذا رغبوا بذلك، يستطيع الإنسان تخيل مدى عمق الفهم الخاطىء في الخارج بين أناس تلقوا تربية ثقافية مسيحية، وقد يصدق القول: كلما قرأ أمثالهم التوراة، كلما عرفوا أقل عن اليهودية الأرثذوكسية، إذ تنظر الأخيرة إلى العهد القديم كمجموعة من الصيغ المقدسة الجامدة غير القابلة للتغيير، لتلاوتها فضيلة عظيمة، لكن معناها يتحدد في مكان آخر، وكما قال الأحدب القصير البدين لأليس، خلف مشكلة من يحدد معاني الكلمات، ينتصب السؤال الحقيقي: «من سيكون السيد» .

بنية التلمود

فليكن مفهوماً، على هذا الأساس، أن مصدر التشريع لكل ممارسات اليهودية الكلاسيكية (والأرثذوكسية حالياً) والأساس المقرر لبنيتها التشريعية هو التلمود، وإذا توخينا الدقة ما يدعى بالتلمود البابلي، لأن

بقية الأدب التلمودى (بما فيها ما يدعى التلمود المقدسى أو الفلسطينى) مجرد تشريعات تكميلية.

لا نستطيع الدخول هنا فى وصف تفصيلى للتلمود والأدب التلمودى، سنقتصر على بعض النقاط الرئيسية التى تقتضيها المعالجة يتكون التلمود أساساً، من جزأين: الأول المشناه - موجز للشرائع فى ستة مجلدات، أو رسائل، مكتوبة بالعبرية، وقد صيغت فى فلسطين حوالى القرن الثانى، من مواد تشريعية أكثر شمولاً (وشفوية فى أغلب الأحوال) فى القرنين السابقين، والجزء الثانى، الأكثر أهمية، الجماره، عبارة عن سجل ضخم للنقاشات حول المشناه، ويتكون من مجموعتين متوازيتين تقريباً من النصوص، جمعت الأولى فى بلاد الرافدين (بابل) بين القرنين الثانى والخامس. والثانية فى فلسطين بين القرن الثانى وتاريخ مجهول فى القرن الخامس. التلمود البابلى (أى المشناه وجماره بلاد الرافدين) أكثر شمولاً وتنظيماً من التلمود الفلسطينى. ويعتبر بمفرده المصدر القاطع للتشريع، يحتل التلمود المقدسى (الفلسطينى) مرتبة أدنى كمرجع للتشريع، مع عدد آخر من الاضافات المعروفة. جماعياً باسم (الأدب التلمودى) وهى تحتوى على أشياء لم يذكرها محررو التلموديين السابقين .

وخلافاً للمشناه، فإن بقية التلمود والأدب التلمودى مكتوبة بمزيج من العبرية والآرامية، واللغة الأخيرة مهيمنة فى التلمود البابلى. كما أن النص لا يقتصر على الشؤون الشرعية فقط بل يتوقف فجأة لسرد ما يسمى «القصص» (هاغادا) وهى خليط من الحكايات والنوادر حول حاخامات، أو

إنـاس من العـامة، وشخصيـات تـوراتية، ومـلائكـة، وعفـاريت، وسحـر، ومعجزات[1]. لقـد اعتبرت هـذه المقـاطع القصصية دائماً (حتى من جـانب التلمـود) ذات قيـمة ثـانوية. ومـا يحظى بالأهميـة العظمـى بنظـر اليهـودية الكلاسيكية هى الأجـزاء التشـريعية فـى النص، خاصة نقاش الحالات التى تعتبر إشكاليـة. كذلك يحدد التلمود أنواع اليهود بطريقة تصـاعدية: أدناهم مرتبة الجهلـة كلياً، يـأتـى بعدهـم مـن يعرفون التوراة فقط، ثـم بعـدهـم مـن يعرفون المشناه والجمـاره أو الهـاغـادا، وفـى المـرتبة العليـا مـن درســوا ويستطيعون نقـاش الأجزاء الشرعيـة فى الجماره. وأصحاب المرتبة الأخيرة فقط يصلحون لتوجيه اليهود فى كل شىء .

يمكن وصف المنظومـة الشـرعية للتلمـود كمنظـومة جـامعـة، شمولية وصلـدة، لكنهـا ذات قدرة على النمو اللانهائى دون أدنى تغيير فى أساسها الـدوغمائى. إنه يغطى كل جـانب مـن جـوانب الحيـاة اليهـودية، الشخصية والاجتماعية، بجزئيات كثيرة، وتحريمات وعقوبات لكل خطيئة تخطر على البـال، أو انتهـاك للقـواعـد. ومـا يمكـن نقاشه، ويناقش فعليا باستفاضة، التعريف العملى لتلك القواعد، فلنقدم بعض الأمثلة .

«عدم القيام بأى عمل» يوم السبت. يعرّف العمل، هنا، باعتباره يشتمل على ٣٩ نوعا من الأعمال لا أكثر ولا أقل. والمقياس المستخدم لا علاقة له بالجهد المبذول فى عمل ما، فهى مسألة تعريف دوغمائى فقط.

---

(١) تخلو الميشناه بصورة ملحوظة من هذا كله، وخاصة أن الاعتقاد بالعفاريت والسحر نادر فيها. أما التلمود البابلى فهو ملىء بالخرافات الفاضحة.

أحد أنواع «العمل» المحرمة، الكتابة. عندئذ ينشأ السؤال: كم عدد الحروف التى ينبغى كتابتها كى يقترف الإنسان معصية الكتابة يوم السبت؟ والجواب: حرفان) ولكن هل المعصية نفسها بصرف النظر عن اليد التى يكتب بها الإنسان؟ (الجواب: لا) وللوقاية من السقوط فى المعصية يسيّج حظر الكتابة بحظر آخر يدعو لعدم لمس أى أداة من أدوات الكتابة يوم السبت .

أحد الاعمال الأولية الأخرى المحظورة يوم السبت، طحن الحبوب، ويستخلص من هذا الحظر حظر آخر بالقياس، فيصبح طحن أى شىء أمراً محرماً، ويسيّج بحظر أى ممارسة للطب يوم السبت (ما عدا تعرض حياة يهودى للخطر) للحيلولة دون الوقوع فى المعصية من خلال طحن الدواء، من العبث، طبعاً، الإشارة إلى عدم وجود حظر كهذا فى العصر الحديث (كما أنه لم يكن موجوداً في كثير من الحالات حتى فى الأزمنة التلمودية) إذ يمنع التلمود، كسياج حول السياج، الأدوية السائلة والأشربة الشافية يوم السبت. ما ثبت يبقى ثابتاً إلى الأبد، بصرف النظر عن عبثيته. وقد كتب تيرتوليان، أحد «آباء الكنيسة» الأوائل «إننى أعتقد بهذا الأمر لأنه عبثى» وربما يصلح هذا كشعار للغالبية العظمى من القواعد التلمودية، مع إحلال كلمة «أمارس» بدلا من «أعتقد» .

يبين المثل الثانى بصورة أفضل مدى العبثية التى بلغتها هذه المنظومة. احد الأعمال الأولية المحظورة يوم السبت، الحصاد. ويمتد هذا الحظر، بالقياس، لتحريم قطع غصن شجرة. وعلى هذا الأساس ركوب الحصان(أو أى حيوان آخر) محظور، وذلك كسياج أمام إغراء قطع غصن

من شجرة لحث الحيوان. من غير المجدى، طبعاً، الجدال بأن لديك سوطا جاهز الصنع، أو أنك تريد الركوب فى مكان لا توجد به أشجار. ما حُرم يبقى محرماً إلى الأبد. لكنه قد يمط، ويصبح أكثر صرامة. ففى الأزمنة الحديثة يحظر ركوب الدراجة يوم السبت، لأنها تماثل ركوب الحصان .

أما مثلى الأخير فيبين كيف تستخدم نفس المناهج فى مسائل نظرية صرفة لا علاقة لها بتطبيق محتمل فى الواقع. ومنها السماح خلال فترة وجود الهيكل للكاهن الأعظم فقط بالزواج من عذراء. ورغم عدم وجود هيكل أو كاهن أعظم خلال الفترة التلمودية، إلا أن التلمود يكرس أحد أكثر مناقشاته حدة (وعبثية) حول التعريف المحدد لمفردة «عذراء» الصالحة للزواج من الكاهن الأعظم. ماذا بالنسبة لامرأة تمزق غشاء بكارتها فى حادث ما ؟

هل هناك فرق إذا وقع الحادث قبل أو بعد سن الثالثة؟

بسبب أداة خشبية أو معدنية ؟

هل كانت تتسلق شجرة ؟

وإذا كان الأمر كذلك، هل كانت صاعدة أم هابطة ؟

هل حدث تمزق الغشاء بصورة طبيعية أم غير طبيعية ؟

يتم كل هذا النقاش وغيره باستفاضة بالغة. وعلى كل عالم فى اليهودية الكلاسيكية أن يكون ضليعا فى مئات من تلك المشاكل. وقد حكم على العلماء الكبار، من خلال قدراتهم على تمطيط تلك المشاكل أكثر مما هى عليه. فهناك دائماً، كما تُظهر الأمثلة، مجال لمزيد من الاستفاضة،

شريطة أن تكون فى اتجاه واحد. وقد حدثت هذه الاستفاضة فعلا بعد الصياغة النهائية للتلمود .

رغم ذلك، هناك اختلاف كبير بين الفترة التلمودية (انتهت عام ٥٠٠) وفترة اليهودية الكلاسيكية (بداية من عام ٨٠٠)، فالمساحة الجغرافية التى يظهرها التلمود ضيقة، بينما المجتمع اليهودى مجتمع «كامل» يعتمد على الزراعة اليهودية (ينطبق هذا على بلاد الرافدين وفلسطين) رغم وجود يهود وقتئذ فى مختلف أنحاء الإمبراطورية الرومانية، وفى مناطق كثيرة من الإمبراطورية الساسانية. ولكن يتضح من تركيب النص التلمودى- على مدار خمسة قرون- أن تأليفه كان مسألة محلية صرفة، اذ لم يشارك علماء من بلدان أخرى ما عدا بلاد الرافدين وفلسطين فى كتابته، كما لا تظهر فى النص أى أوضاع اجتماعية خارج هاتين المنطقتين. وفى فترة القرون الثلاثة الفاصلة بين اليهودية التلمودية واليهودية الكلاسيكية ثمة معلومات قليلة جداً عما كانت عليه الأوضاع فى تلك الفترة. ولكن، بداية من عام ٨٠٠ فصاعداً، حيث توفرت المعلومات التاريخية التفصيلية مرة أخرى، نجد أن السمتين المذكورتين أعلاه (ضيق الرقعة والمجتمع الكامل) قد قلبتا إلى النقيض. حيث يُعترف بالتلمود البابلى (وبقدر أقل بقية الأدب التلمودى)كسلطة دينية مرجعية، ويُدرس ويُطور فى كافة الطوائف اليهودية. فى نفس الوقت خضع المجتمع اليهودى لتغير عميق، ومهما كان ذلك المجتمع وكيفما كان، فإنه لم يعد يضم فلاحين. سنناقش النظام الاجتماعى الناجم عن هذا التغير فى القسم الثالث.

هنا، سنصف كيف تكيف التلمود مع الأوضاع الجديدة، الأوسع جغرافياً والأضيق اجتماعياً، وهى أوضاع تختلف عن السابق بصورة جذرية. سنرى إذن كيف تكيف التلمود مع اليهودية الكلاسيكية، ونركز على ما أعتقد أنه أهم طرق التكيف .

التدابير الإلهية لشؤون العالم

كما لاحظنا أعلاه، فإن المنظومة التلمودية دوغمائية جداً، لا يُسمح بأى تراخٍ فى قواعدها حتى عندما تصبح عبثية مع تغير الظروف. وخلافاً للتوراة، فإن المعنى الحرفى فى التلمود ملزم بصفة قاطعة، ولا يسمح للإنسان بتفسيره، ولكن فى فترة اليهودية الكلاسيكية تعذر الدفاع عن كثير من الشرائع التلمودية من جانب الطبقات الحاكمة اليهودية: الحاخامات والأغنياء، وخدمة لمصلحة تلك الطبقات، ابتُكرت طريقة خداع منهجى للحفاظ على نظام الشريعة الشكلى، مع انتهاك روحها ومقصدها .

إنها هذه المنظومة المنافقة من «التخريجات» (حيتريم) التى كانت من أهم أسباب انحطاط اليهودية فى حقبتها الكلاسيكية (كان السبب الثانى الصوفية اليهودية التى نشطت لفترة أقصر من الوقت). هنا، نحتاج مجدداً لبعض الأمثلة لتوضيح كيف تعمل هذه المنظومة .

١ - الربا: يمنع التلمود بصرامة اليهودى، تحت طائلة العقاب الشديد، من تقاضى فائدة على قرض يعطيه ليهودى آخر. (تفيد غالبية المراجع التلمودية أن أخذ أكبر قدر ممكن من الفائدة من قرض لأحد الأغيار

يعتبر واجباً دينياً) وهناك قواعد تفصيلية تمنع حتى أدنى أشكال استفادة دائن يهودى من مدين يهودى آخر، يصم التلمود كل المشاركين اليهود فى معاملة محرمة كهذه، بما فيهم كاتبها والشهود، كأشخاص شائنين، وغير مؤهلين للشهادة فى المحاكم، فمن يشارك فى عمل كهذا، كمن «لا يكون له نصيب فى إله إسرائيل» . من الواضح أن هذا القانون يلائم حاجات الفلاحين اليهود، أو الحرفيين، أو طوائف يهودية صغيرة تستخدم أموالها فى إقراض غير اليهود. لكن الوضع كان مختلفاً تماماً فى أوروبا الشرقية (بصورة أساسية فى بولندا) فى القرن السادس عشر. كانت هناك طائفة يهودية كبيرة نسبياً، يُسمح لهم بالاقتراض، بينما إقراض النبلاء عمل قلة قليلة من الأغنياء اليهود، لذا اضطر كثير من اليهود لممارسة الأعمال التجارية بين بعضهم البعض. ابتكرت، فى تلك الظروف، الطريقة التالية (تدعى حيتر عيسقا - تخريج الأعمال): من أجل الحصول على قرض ذى فائدة من يهودى، دون انتهاك الشريعة، يجب ألا يكون القرض من الناحية الشكلية قرضا على الإطلاق، لذلك يستثمر المرابى ماله فى تجارة المقترض، مع تعهد يتكون من شرطين: أولاً، يتعهد المقترض أن يدفع للمرابى فى وقت متفق عليه فى المستقبل مبلغاً محدداً من المال (قيمة الربا فى الواقع) وذلك «كنصيبه فى الأرباح». ثانيا يفترض أن المقترض حقق قدراً من الربح، لذا ينبغى عليه إعطاء المرابى حصته الأصلية، أى القرض، إلا إذا ادعى عكس ذلك بشهادة مؤيدة من حاخام البلدة، أو القاضى الحاخامى، الذى يرفض، حسب الترتيب، تقديم الشهادة فى مثل هذه الحالات .

المطلوب، من ناحية عملية، لإتمام الصفقة، أخذ نص هذا «التخريج» المكتوب بالآرامية، وغير المفهوم من جانب الغالبية العظمى من الناس وتعليقه على جدار الحجرة التى تجرى فيها الصفقة (توجد نسخة من هذا النص فى جميع فروع البنوك الإسرائيلية) أو حتى الاحتفاظ بالنص فى خزانة. هكذا يبدو قرض الفائدة (الربا) بين اليهود شرعياً تماماً ولا يثير اللوم .

٢ - السنة السبتية: تنص الشريعة التلمودية على بقاء الأرض المملوكة لليهود فى فلسطين [١]، مرتاحة دون زراعة مرة كل سابع سنة، فتحظر كافة أنواع العمل الزراعى (بما فى ذلك الحصاد) وهناك ما يثبت أن هذه الشريعة روعيت مدة ألف عام تقريبا، بداية من القرن الخامس قبل الميلاد حتى اختفاء الزراعة اليهودية فى فلسطين. فيما بعد، عندما لم تعد ثمة إمكانية لتطبيق هذه الشريعة عملياً، حوفظ عليها نظرياً دون تغيير، ولكن فى ثمانينات القرن التاسع عشر مع إقامة أول المستعمرات الزراعية اليهودية فى فلسطين، عادت إلى الممارسة من جديد، لذلك ابتدع الحاخامات المتعاطفون مع المستوطنين «تخريجاً» لها، وأصبح فيها بعد شديد الإتقان على يد خلفائهم فى الأحزاب الدينية الصهيونية، كما أصبح ممارسة إسرائيلية معترف بها .

يعمل «التخريج» بالطريقة التالية: قبيل حلول السنة السبتية يعطى

---

(١) أو، إذا أردنا الدقة، فى كثير من أنحاء فلسطين. ويبدو أن الأنحاء التى تنطبق عليها الشريعة تلك التى كانت فيها أغلبية يهودية ما بين ١٥٠ - ٢٠٠ للميلاد

وزير الداخلية الإسرائيلى لكبير الحاخامات شهادة تجعله المالك القانونى لكل الأراضى الإسرائيلية، الخاصة والعامة، يذهب الحاخام الأكبر مسلحاً بهذه الشهادة إلى شخص غير يهودى ويبيعه كل أرض اسرائيل (ومنذ عام ١٩٦٧ الأراضى المحتلة أيضاً) مقابل مبلغ رمزى من المال، من ناحية أخرى، يتعهد «المشترى» فى شهادة أخرى أن «يبيع» الأرض ثانية بعد نهاية السنة، وتتكرر هذه الصفقة كل سبع سنوات، عادة مع نفس المشترى .

لا يعترف الحاخامات غير الصهاينة [١] بصلاحية هذا «التخريج» معلنين، بصواب، أن الصفقة تقوم على المعصية، لأن الشريعة الدينية تحرم على اليهود بيع أرض فى فلسطين للأغيار، ولذا فهى صفقة باطلة، ويرد الحاخامات الصهاينة أن المحرم، فعلاً، عملية بيع حقيقية وليس صفقة بيع «مفبركة» .

٣ – حلب الأبقار يوم السبت: حرم هذا العمل فى عهود ما بعد التلمود، وذلك فى سياق عملية زيادة صرامة التحريمات الدينية المذكورة أعلاه. وقد كان من الممكن الحفاظ على ذلك التحريم فى الدياسبورا، لأن اليهود الذين يملكون أبقاراً كانوا، عادة، على درجة من الغنى تمكنهم من تشغيل خدم غير يهود، وأمرهم (باستخدام واحدة من الحيل المذكورة أدناه)بحلب الأبقار، وقد وظف المستعمرون اليهود الأوائل فى فلسطين عرباً لهذه الغاية، ولأغراض أخرى أيضاً، ولكن مع الغرض القسرى للسياسة

(١) لذلك ينظم الأرثذوكس اليهود غير الصهاينة فى إسرائيل دكاكين خاصة فى السنوات السبتية، تبيع الفواكه والخضروات التى يزرعها العرب فى أراض عربية.

الصهيونية التي تستهدف تهويد العمل نشأت الحاجة لوجود «تخريج» ما (كان هذا التخريج مهماً بصفة خاصة قبل استخدام وسائل الحلب الميكانيكية فى أواخر الخمسينات) وبهذا الصدد، أيضاً، كان هناك فرق بين الحاخامات الصهاينة وغير الصهاينة .

بالنسبة للصهاينة يصبح الحلب جائزاً إذا لم يكن لون الحليب أبيض بل مصبوغا بلون يميل إلى الزرقة. ومن حليب السبت هذا تصنع الجبنة وتزول الصبغة فى مصل اللبن .

أما الحاخامات غير الصهاينة فقد ابتدعوا طريقة أكثر مهارة (شهدتها بنفسى فى كيبوتس للمتدينين عام ١٩٥٢) فقد عثروا على عبارة قديمة تجيز إفراغ ضروع الأبقار يوم السبت لإراحتها من الألم الذى يسببه احتقان الضروع، شريطة أن يسكب الحليب على الأرض، والآن، هذا ما حدث فى الواقع: يذهب عضو الكيبوتس التقى صبيحة يوم السبت إلى حظيرة الأبقار، ويضع دلاء تحت الابقار (لايوجد حظر على مثل هذا العمل فى كل الأدب التلمودى) ثم يذهب إلى الكنيس للصلاة، ويأتى زميله الذى يريد «بنية صادقة» تخفيف الألم عن الحيوانات وجعل حليبها ينساب على الأرض، ولكن إذا كانت ثمة دلاء، بالصدفة، تحت الأبقار، فليس هناك ما يستوجب إزاحتها، فهو، ببساطة، يتجاهل الدلاء، ويؤدى مهمته الرحيمة، ثم يذهب للصلاة، أخيراً، يجيء تقى آخر إلى حظيرة الأبقار، ويكتشف، لدهشته الشديدة، أن الدلاء مليئة بالحليب، لذا يحملها ويضعها فى مكان بارد للحفظ، ويتبع رفاقه للصلاة بهذه الطريقة يصبح كل شيء على ما يرام، ولا ضرورة لتبذير النقود فى شراء الصبغة الزرقاء .

٤ - المحاصيل المختلطة: ابتدع الحاخامات الصهاينة «تخريجات» مشابهة بشأن تحريم بذر نوعين مختلفين من البذور فى حقل واحد. فقد أثبت علم الزراعة الحديث فى بعض الحالات (خاصة زراعة علف الماشية) أن البذور المختلطة أكثر مردوداً. لذلك ابتكر الحاخامات تخريجاً يتيح لرجل أن ينثر نوعا من البذور على طول الحقل، وفى وقت لاحق من نفس اليوم يأتى زميله «الذى لا يعرف» ما حدث، وينثر بذوراً من نوع مختلف بالعرض، رغم ذلك، شعروا أن هذه الطريقة تهدر الكثير من طاقة العمل، فابتدعوا طريقة أخرى: يكوِّم أحدهم كومة من البذور فى مكان عام ويغطيها، بعناية، بكيس من القماش، أو بلوح من الخشب، ثم يضع فوقها النوع الثانى من البذور. بعد ذلك يأتى رجل آخر ويصيح أمام الحاضرين : «إننى بحاجة لهذا الكيس، أو اللوح» ويزيحه. هكذا تختلط البذور بصورة «طبيعية». يأتى رجل ثالث فيقال له «خذ البذور وانثرها فى الحقل» وهذا ما يفعله (١) .

٥ - المواد المخمرة: يحرم على اليهود تناول أو حفظ المواد التى تدخل الخميرة فى تكوينها خلال الأيام السبعة لعيد الفصح (أو ثمانية أيام خارج فلسطين) وقد اتسع مفهوم «المواد المخمرة» باضطراد، وازداد مقتها

---

(١) فى شتاء عام ١٩٤٥ - ١٩٤٦، شاركت بنفسى، وكنت صبياً فى الثالثة عشر من العمر فى عمليات كهذه. كان المسؤول عن العمل الزراعى فى المدرسة الزراعية الدينية التى أدرس فيها يهودياً ورعاً بصورة ملحوظة ولذا فكر أن من الأسلم استخدام طفل يتيم ما دون الثالثة عشرة من العمر للقيام بالعمل الحاسم. أى جلب الغطاء، لأنه غير قادر على ارتكاب المعصية (لا يكون الطفل فى تلك السن قادراً على المعصية، يعتبر والده إذا كان حيا، مسؤولاً عن ذلك) لقد شرح كل شىء لى بعناية شديدة قبل القيام بذلك العمل، بما فى ذلك ضرورة القول «أريد هذا الغطاء» بينما لم أكن أحتاجه فى الواقع.

الذى يبلغ مع اقتراب العيد درجة الهستيريا. إنها تشتمل على جميع أنواع الدقيق، وحتى الحبوب غير المطحونة. وقد كان هذا الأمر محتملاً فى المجتمع التلمودى لأن الخبز (سواء أكان مخمراً أم لا) يخبز مرة فى الأسبوع، حيث تستخدم العائلة الفلاحية آخر حبوب السنة المنقضية لخبز خبزها غير المخمر لمناسبة العيد، الذى يواكب موسم الحصاد الجديد. ولكن بالنسبة لأوضاع اليهود فى أوروبا بعد الأزمنة التلمودية، كان التقيد بهذا الأمر شديد الوطأة على العائلة اليهودية من الطبقة الوسطى، وحتى على عائلة أحد تجار الحبوب. لذلك ابتدع «تخريج» جديد تباع بموجبه كل تلك المواد صوريا لواحد من الأغيار قبل قدوم العيد، ثم تباع لأصحابها من جديد بعده على الفور. الشىء الضرورى فقط هو الحفاظ على تلك المواد فى مكان مغلق طوال فترة العيد .

وقد أصبح البيع الصورى أكثر إتقانا فى إسرائيل، حيث «يبيع» المتدينون اليهود موادهم لحاخاماتهم المحليين، الذين يبيعونها بدورهم لكبار الحاخامات، وأولئك يبيعونها لواحد من الأغيار. و «بتخريج» معين يفترض أن تشمل الصفقة الصورية المواد المخمرة لدى اليهود غير المواظبين على أداء الطقوس الدينية أيضا .

٦ - أغيار السبت: وبما تكون أكثر «التخريجات» تطوراً تلك المتعلقة بغوى السبت (من غوييم، أى الأغيار) وكما أسلفنا، فإن مدى الأشياء المحرمة قد ازداد اتساعاً باضطراد، كما أن المهام المطلوب القيام بها أو مراعاتها قد ازدادت أيضاً. يصدق هذا الوضع بصفة خاصة فى الأزمنة

الحديثة، رغم أن تأثير التقدم التكنولوچى أصبح ملموساً منذ زمن بعيد. كان حظر طحن الحبوب يوم السبت مسألة هينة نسبياً لفلاح أو حرفى يهودى فى فلسطين القرن الثانى للميلاد مثلاً، ذلك الذى يستخدم مطحنة يدوية للأغراض المنزلية. لكن المسألة مختلفة تماما بالنسبة لصاحب مطحنة هوائية أو مائية - أكثر المهن اليهودية انتشاراً فى أوروبا الشرقية- وهناك أيضا مشاكل إنسانية أكثر بساطة، مثل رغبة احتساء قدح من الشاى الساخن عشية السبت، التى تصبح أكثر إغراء مع وجود السماور، المستخدم بانتظام طيلة أيام الأسبوع، والمنتصب فى زاوية الحجرة. تلك أمثلة فقط لعدد لا يحصى من المشاكل الناجمة عن مراعاة حرمة السبت، ويمكن الجزم بقناعة تامة، بالنسبة لطائفة تتكون من يهود أرثذوكس، فإن تلك المشاكل لم تكن قابلة للحل، على الأقل خلال القرون الثمانية أو العشرة الماضية، دون «مساعدة» من الأغيار. ويصدق هذا الامر الأن بصورة أكبر فى «الدولة اليهودية» لأن الكثير من الخدمات العامة مثل الماء والغاز والكهرباء تدخل ضمن هذا الباب، ولم يكن بمقدور اليهودية الكلاسيكية مواصلة العيش حتى لمدة أسبوع واحد دون استخدام بعض الأغيار .

ولكن دون وجود «تخريجات» معينة ثمة عقبة كبيرة تعترض استخدام الأغيار للقيام بأعمال السبت لأن الشرائع التلمودية تمنع اليهود من استخدام الأغيار فى أداء الأعمال المحرمة على اليهود أنفسهم [١] . سأصف هنا نوعين فقط بين عديد من «التخريجات» المستخدمة لهذا الغرض .

---

(١) مثلا يحرم التلمود على اليهود الاستمتاع بضوء شمعة أشعلها أحد الأغيار يوم السبت، إلا إذا كان ذلك الشخص قد أشعلها لنفسه قبل دخول اليهودى الحجرة.

أولاً: هناك طريقة «التلميح» التى تعتمد على منطق التحايل على القوانين، حيث تصبح المعصية بمقتضاها عملاً بريئا، شريطة أن تمارس بمهارة، وكقاعدة عامة يجب أن يكون التلميح «غامضاً»، أما فى حالات الرغبة الملحة فيسمح بالتلميح «الصريح». على سبيل المثال، فى كراس دينى حديث موجه لجنود الجيش الإسرائيلى، يتم تلقين الجنود كيف يخاطبون العمال العرب الذين يستخدمهم الجيش، يوم السبت كأغيار، فى الحالات الملحة، مثلاً، عندما يكون الجو بارداً جداً ويجب إشعال النار، أو عندما يصبح إشعال الأضواء ضرورياً لأداء الواجبات الدينية، يستطيع الجندى المتدين استخدام تلميح «صريح» فيقول للعربى: «الجو بارد (أو مظلم) هنا» وعادة يكفى التلميح «الغامض» مثل : «سيكون الجو أفضل هنا لو أصبح أكثر دفئاً»[1]. إن طريقة «التلميح» هذه بغيضة ومهينة، بقدر ما يتعلق الأمر، بغير اليهودى. والخادم غير اليهودى (أو المستخدم لدى الجيش الإسرائيلى) الذى لا يمرن نفسه على تفسير «التلميحات الغامضة» كأوامر، سيطرد من عمله بلا شفقة .

تستخدم الطريقة الثانية يوم السبت فى الحالات التى لا يطلب من

(١) أحد أعمامى فى وارسو قبل عام ١٩٣٩ ، استخدم طريقة أكثر ذكاء، لقد شغّل خادمة غير يهودية تدعى ماريسا، وكان من عادته عند النهوض من قيلولة السبت القول بصوت منخفض فى البداية: «كم سيكون جميلا لو»ثم يرفع صوته إلى حد الزعيق «أحضرت ماريسا لنا قدحاً من الشاى» وكان ينظر له باعتباره ورع ويخشى الله ولم يحلم أبداً حتى برشف قطرة من الحليب بعد ست ساعات كاملة من أكل اللحم وفى مطبخه كان يحتفظ بحوضين للغسيل، أحدهما لغسل الأطباق المستخدمة للحم، والثانى للحليب.

غير اليهود فيها أداء أعمال طارئة أو خدمات شخصية يمكن «التلميح»بها، كما بيّنا، بل لأداء أعمال روتينية ومنتظمة، دون وجود مراقبة يهودية دائمة. وحسب هذه الطريقة، التى تدعى «التضمين الضمنى» (هافلاعاه) ليوم السبت، يستخدم أحد الأغيار «لكل الأسبوع (أو العام)» دون التركيز فى عقد العمل على يوم السبت بصفة خاصة، لكن العمل المطلوب يجرى فى الواقع يوم السبت. وقد استخدمت هذه الطريقة فى الماضى ليقوم أحد الأغيار بأطفاء شموع الكنيس بعد صلاة ليلة السبت (بدلاً من هدرها وتركها مشتعلة حتى النهاية) وتستخدم فى النماذج الإسرائيلية الحديثة لتنظيم إمدادات المياة ومراقبة خزانات المياه فى أيام السبت [1] .

تستخدم عملية مشابهة أيضا بالنسبة لليهود، ولكن لغاية مختلفة، إذ يحظر على اليهود تلقى مقابل لعمل يؤدونه يوم السبت، حتى لو كان العمل نفسه مسموحاً به. والمثل المذكور، هنا، يتعلق بالمهن المقدسة: الحاخام، أو العالم التلمودى الذى يعظ أو يعلم يوم السبت، وقائد جوقة

(١) تحدث أحياناً أخطاء مؤسفة لأن بعض تلك الأعمال تكون عادة سيئة جداً، فتتيح للمستخدم ستة أيام راحة فى الأسبوع، وقد اهتزت مدينة بنى براك (قرب تل أبيب) التى تقطنها أغلبية من اليهود الأرثلوكس فى الستينات بفعل فضيحة مروعة. فقد اكتشفوا بعد وفاة «غوى السبت» الذى استخدموه لمدة عشرين عاما لمراقبة إمدادات المياه فى أيام السبت، أنه لم يكن مسيحياً، بل كان يهودياً. ولذلك عندما استخدم خلفه الدرزى للقيام بنفس العمل، طلبت البلدة من الحكومة وحصلت على وثائق تفيد أن الموظف الجديد أحد الأغيار من سلالة نقية (كون الإنسان يهودياً يعتمد على الانحدار من سلالة الأم وليس على الإيمان الفعلى الشخصى) وقد أشيع وقتها أنهم طلبوا من الشين بيت تقصّى حقيقة انتساب الموظف الجديد للأغيار.

الإنشاد، الذى ينشد فى أيام السبت والأيام المقدسة فقط (التى تنطبق عليها تحريمات أخرى أيضاً) والقندلفت، إضافة إلى مهن أخرى مشابهة .

كانت تلك الأعمال فى الأزمنة التلمودية، وفى بعض البلدان بعد الأزمنة التلمودية بقرون عدة، غير مدفوعة الأجر، لكنها عندما أصبحت مدفوعة الأجر فى وقت لاحق، تم استخدام «تخريج التضمين الضمنى» وتم توظيف أولئك الأشخاص على أساس «الشهر» أو «العام». وقد كانت المشكلة بالنسبة للحاخامات والعلماء التلموديين معقدة بصفة خاصة، لأن التلمود يمنعهم من أخذ مقابل مواعظهم ودروسهم فى المسائل التلمودية حتى فى بقية أيام الأسبوع [1] . لذلك ابتدع لصالحهم تخريج إضافى ينص على أن المقابل الذى يتلقونه ليس أجراً فى الواقع، ولكنه «تعويض بطالة» (ديمى بطالة). وعلى هذا الأساس يصبح الأجر الذى يتلقونه مقابل أعمال تقتصر على يوم السبت فقط مقابل بطالة عن بقية أيام الأسبوع .

الجوانب الاجتماعية للتخريجات

سنذكر اثنتين من السمات الاجتماعية لتلك التخريجات، وهما تستحقان الاهتمام: أولاً أن السمة السائدة فى منظومة التخريجات هذه، وفى اليهودية الكلاسيكية المعتمدة عليها، هى الخداع- خداع الرب فى المقام

(١) خلافاً لذلك، يتم القيام بالتعليم الابتدائى للتوراة مقابل مال. وقد اعتبر هذا العمل دائماً عملا قليل القيمة وسيء المردود من ناحية مادية.

الأول من جانب الحاخامات الذين يتصورون أنفسهم أكثر مهارة منه- وليس هناك من فرق أكبر من ذلك القائم بين رب التوراة (خاصة إله الأنبياء العظام) وإله اليهودية الكلاسيكية، فالأخير أقرب إلى جوبيتر الإله الرومانى الذى خُدع أيضا من جانب عابديه، أو إلى الآلهة التى وصفها فريزر فى «الغصن الذهبى». وإذا نظرنا إلى الأمر من زاوية أخلاقية، فإن اليهودية الكلاسيكية تمثل عملية انحطاط، ما تزال مستمرة. ولهذا الانحطاط إلى مجموعة قبلية من الطقوس الفارغة والخرافات العجيبة نتائج اجتماعية وسياسية فائقة الأهمية .

وينبغى التذكير أن خرافات اليهودية الكلاسيكية هى التى تمارس أعظم التأثير على الجماهير اليهودية، وليست تلك الأجزاء من التوراة، أو حتى من التلمود، ذات القيمة الأخلاقية والدينية الحقيقية. صلاة «كول نيدرى» التى يعتبرها العامة «أقدس» وأهم مناسبة فى السنة الطقوسية اليهودية، ويحضرها حتى كثير من اليهود البعيدين عن الدين، تلك الصلاة عشية يوم عيد الغفران، هى إنشاد «لتخريج» عبثى ومخادع تعلن بموجبه، مقدماً، كل الأيمان التى ستقسم باسم الرب فى السنة القادمة، باطلة وفارغة[1]. وفى مجال العبادة الشخصية، فإن صلاة «قاديش» التى يؤديها الأبناء فى أيام الحداد لصالح أبويهم كى ترتفع أرواحهم إلى الجنة، عبارة عن ترتيل لنص بالآرامية لا تفهمه الغالبية العظمى من اليهود. ومن الواضح

---

(١) طقس «هام جداً» آخر هو النفخ فى قرن كبش فى رأس السنة، لغاية تضليل الشيطان .

تماماً أن الاحترام الشعبى المسبغ على هاتين الصلاتين- أكثر أجزاء الديانة اليهودية خرافة- لا يمنع للأجزاء الأفضل فى هذه الديانة .

وجنبا إلى جنب مع خداع الرب يسير خداع اليهود الآخرين ، بما يخدم مصالح الطبقة اليهودية الحاكمة. من الملفت للانتباه عدم وجود «تخريجات» تخص فقراء اليهود، فاليهود الذين يتضورون جوعاً، مثلاً، وليسوا فعلياً على حافة الموت، لا يسمح لهم حاخاماتهم، أبداً (الذين لا يجوعون فى أغلب الاحيان) بتناول أى نوع من الطعام المحظور، رغم أن طعام الكوشير أكثر تكلفة دائما .

السمة السائدة الثانية «للتخريجات» أنها تنطلق فى معظمها من دافع الربح. وقد هيمن هذا المزيج من النفاق ودافع الربح باضطراد على اليهودية الكلاسيكية. وفى إسرائيل، حيث تتواصل هذه العملية، يشعر الناس بهذا الأمر بصورة مبهمة رغم كافة وسائل غسل الدماغ التى يعزز سطوتها نظام التعليم وأجهزة الإعلام. لذا فإن المؤسسة الدينية- وبالترابط معها إلى حد ما الطائفة الأرثذوكسية ككل، لا تحظى بشعبية كبيرة هناك، وأحد أهم الأسباب اشتهارها بالفساد والخداع. من نافلة القول، طبعاً، الإشارة إلى أن الرأى الشعبى (الذى غالباً ما يعانى من تحيزات) شيء والتحليل الاجتماعى شيء آخر، ولكن فى هذه الحالة الملموسة يصدق القول أن المؤسسة الدينية اليهودية لديها نزعة قوية للتحايل والابتزاز، بفعل التأثير المفسد للديانة اليهودية الأرثذوكسية. ولأن الديانة فى الحياة الاجتماعية العامة، هى أحد المؤثرات الاجتماعية فقط، فإن تأثيرها على

جماهير المؤمنين ليس بنفس درجة تأثيرها على الحاخامات وزعماء الأحزاب الدينية . اليهود المتدينون فى إسرائيل بسطاء، وغالبيتهم دون شك كذلك، وهم ليسوا بسطاء بفعل تأثير ديانتهم وحاخاماتهم، بل رغماً عنها وعنهم. على صعيد آخر، فى تلك المجالات القليلة للحياة العامة فى إسرائيل الخاضعة كلياً لنفوذ الأوساط الدينية، فإن مستوى التحايل، والخداع، والابتزاز فائق الحد، ويتجاوز إلى حد كبير «المتوسط العام» الذى يتعايش معه المجتمع الإسرائيلى العام غير المتدين .

سنرى فى القسم الثالث كيفية اقتران هيمنة دافع الربح فى اليهودية الكلاسيكية ببنية المجتمع اليهودى، وتمفصلها مع المجتمع العام الذى عاش اليهود بين ظهرانيه فى الفترة «الكلاسيكية» . هنا، أريد مجرد الإشارة إلى أن دافع الربح ليس سمة لليهودية فى كل فترات تاريخها، لا يُخفى هذه الحقيقة سوى التشويش الأفلاطونى الباحث عن «جوهر»متيافيزيقى أبدى لليهودية .

(وقد شجعت الصهيونية هذا التشويش إلى حد كبير، باعتمادها على «الحقوق التاريخية» المستمدة بطريقة لا تاريخية من التوراة) لذلك، يدعى المدافعون عن اليهودية، بصواب تام، أن التوراة معادية لدافع الربح بينما التلمود غير مبال. بيد أن هذا الأمر حدث بفعل نفس الأوضاع الاجتماعية التى كُتبا فيها. وكما أشرنا أعلاه، كتب التلمود فى منطقتين محددتين جيداً فى فترة كان اليهود خلالها يشكلون مجتمعا يقوم على الزراعة، ويتكون أساسا من فلاحين، وهى أوضاع تختلف تماما عن مجتمع اليهودية الكلاسيكية .

فى الملحق، سنعالج بالتفصيل المواقف العدائية والخدع التى تمارسها اليهودية الكلاسيكية ضد غير اليهود، لكن الأهم كسمات اجتماعية : الخداع الناجم عن دافع الربح الذى يمارسه أغنياء اليهود ضد أبناء ديانتهم الفقراء (مثل «التخريجات» المتعلقة بالفائدة على القروض) وينبغى القول هنا، رغم معارضتى للماركسية فى الفلسفة وكذلك فى النظرية الاجتماعية، إن ماركس كان مصيباً تماماً، فى مقاليه حول اليهودية، عندما وسمها بالخضوع لدافع البحث عن الربح، شريطة اقتصار هذا القول على اليهودية، كما عرفها، أى اليهودية الكلاسيكية التى دخلت، فى مرحلة شبابه، فترة انحلالها، صحيح أنه ذكر ذلك بطريقة اعتباطية، ولا تاريخية، وبلا برهان، ومن الواضح أنه توصل لهذه النتيجة بالحدس، لكن حدسه هذه المرة، مع الحصر التاريخى المناسب، كان مصيباً.

القسم الثالث

البنية الاجتماعية لليهودية الكلاسيكية

كتب الكثير من الهراء فى محاولة لتقديم تفسير اجتماعى أو صوفى لليهود أو اليهودية «ككل». ولكن لا يمكن تقديم مثل هذا التفسير، لأن البنية الاجتماعية للشعب اليهودى والبنية الأيديولوجية لليهودية تغيرت بعمق خلال العصور. هناك أربع مراحل رئيسية يمكن تمييزها :

١ - مرحلة مملكتى إسرائيل ويهوذا القديمتين، حتى دمار الهيكل الأول (٥٨٧ ق. م) والمنفى البابلى (يعنى معظم العهد القديم بهذه الفترة، رغم أن معظم الأسفار الرئيسية، بما فيها الأسفار الخمسة الأولى، كما نعرفها، جرى تدوينها فعليا بعد ذلك التاريخ)

(١) انظر، مثلا أرميا، ٤٤، خاصة الآيات ١٥ - ١٩. ومن أجل معالجة رائعة لجوانب معينة من هذا الموضوع انظر :
Raphael Patai, The Hebrew Goddess, Ktav, U.S.A.1967.

اجتماعياً، كانت تلك الممالك اليهودية القديمة مشابهة تماما للممالك المجاورة فى فلسطين وسوريا- كما تبين قراءة متأنية لأسفار الأنبياء - وقد امتد التشابه إلى العبادات الدينية التى تمارسها الغالبية العظمى من الناس[1]. أما الأفكار التى أصبحت فيما بعد من السمات النموذجية لليهودية اللاحقة- بما فى ذلك بالخصوص الفصل العرقى، والتوحيد- فقد كانت مقتصرة فى هذه المرحلة على أوساط صغيرة من الكهنة والأنبياء، الذين استمدوا نفوذهم الاجتماعى من التأييد الملكى لهم.

٢ - مرحلة المركزين فى فلسطين وبلاد الرافدين، منذ «العودة الأولى من بابل» (٥٣٧ ق. م) حتى حوالى «٥٠٠م» وتتسم بوجود مركزين يهوديين يتمتعان بأدارة ذاتية، ويقوم كلاهما على الزراعة بدرجة أساسية، وعلى هذين المركزين فرضت «الديانة اليهودية» التى فصلت بعناية بالغة فى أوساط الكهنة والكتاب من قبل، وتم فرضها بقوة وسلطة الإمبراطورية الفارسية .

إن سفر عزرا فى العهد القديم يحتوى على عرض لنشاطات عزرا الكاهن «الكاتب الماهر فى شريعة موسى» الذى أعطاه أرتحشستا الأول ملك فارس، سلطة «وضع حكام وقضاة» على اليهود فى فلسطين «وكل من لا يعمل شريعة إلهك وشريعة الملك فليقض عليه عاجلا إما بالموت، أو بالنفى، أو بغرامة المال، أو بالحبس».[1]

(١) عزرا، ٧، ٢٥-٢٦. يعنى الإصحاحان الأخيران فى هذا السفر بجهود عزرا لعزل اليهود «الأنقياء» (البذرة المقدسة) بعيداً عن «شعب الأرض» (الذين كانوا جزئيا على الأقل من أصل يهودى) وفسخ الزيجات المختلطة.

وفى سفر نحميا - ساقى الملك أرتحشستا الذى عين حاكما فارسيا على يهودا بسلطات أكبر من سلطات عزرا - نكتشف إلى أى حد كان الإكراه الأجنبى (سنقول بتعبيرات هذه الأيام «الإمبريالى») مفيدا فى فرض الديانة اليهودية، مما أسفر عن نتائج لا تزول.

استمر الحكم الذاتى اليهودى فى كل المركزين خلال معظم الفترة المذكورة، قمعت جميع الانحرافات عن الأرثذوكسية الدينية. وقد وقعت استثناءات لهذه القاعدة عندما أصيبت الأرستقراطية الدينية نفسها «بعدوى» الأفكار الهيلينية (من ٣٠٠ حتى ١٦٦ ق.م ومرة أخرى تحت حكم هيرود الأكبر وورثته من ٥٠ حتى ٧٠ م) أو عندما تعرضت للانشقاق كردة فعل لتطورات جديدة (على سبيل المثال، الانقسام بين الحزبين الكبيرين الفريسيين والصدوقيين، الذى وقع حوالى ١٤٠ ق. م) رغم ذلك، بمجرد تمكّن أحد الفريقين من النجاح، كان يستخدم آلية الإكراه الكامنة فى مجتمع الحكم الذاتى اليهودى (أو لفترة قصيرة من الوقت، مجتمع الاستقلال) لفرض أفكاره الدينية على كافة اليهود فى المركزين.

خلال معظم ذلك الوقت، خاصة بعد انهيار الإمبراطورية الفارسية، وحتى حوالى ٢٠٠م كان اليهود خارج المركزين بمنجاة من سلطة الإكراه الدينية اليهودية. من بين أوراق البردى المحفوظة فى الفنتين (فى مصر العليا) هناك رسالة يرجع تاريخها إلى ٤١٩ ق. م تحتوى على مرسوم من الملك داريوس الثانى الفارسى، يأمر يهود مصر بضرورة احترام عيد الفصح[1]. لكن الممالك الهيلينية، والجمهورية الرومانية، والإمبراطورية الرومانية المبكرة لم تكلف نفسها عناء الاهتمام بمثل هذه الأمور.

(١) W.F. Albright, Recent Discoveries in Bible Lands, Funk and wagnall, New York, 1955, P 103.

إن الحرية التى تمتع بها اليهود الهيلينيون خارج فلسطين قد أتاحت لهم خلق أدب يهودى مكتوب بالإغريقية، لكن اليهودية قضت عليه فيما بعد، بينما حافظت المسيحية على بقاياه»[1]. وقد كان مجرد صعود المسيحية ممكنا بسبب الحرية النسبية للطوائف اليهودية خارج المركزين. وتجربة الحوارى بولص ذات دلالة هامة فى هذا السياق، عندما اتهمت الطائفة اليهودية المحلية فى كورنثيوس بالهرطقة، رفض الحاكم الرومانى، غاليو، الشكوى فى الحال لأنه لا يريد تنصيب نفسه «قاضيا فى مثل هذه المسائل»[2]، بينما فى يهودا، شمر الحاكم، فيستوس، بضرورة الاطلاع القانونى على قضية تتعلق بنزاع يهودى دينى محض[3].

انتهى ذلك التسامح قرابة عام ٢٠٠ م، عندما فرضت الديانة اليهودية، التى درست وتمركزت فى تلك الأثناء بفلسطين، من جانب السلطات الرومانية على كافة يهود الإمبراطورية[4].

٣ - المرحلة التى أسميناها اليهودية الكلاسيكية، والتى سنناقشها لاحقا[5].

---

(١) من المثير للملاحظة مع هذا الحشد الأدبى أن كل الكتب التاريخية التى كتبها يهود بعد حوالى سنة ٤٠٠ قبل الميلاد قد رفضت أيضاً. وحتى القرن التاسع عشر كان اليهود يجهلون تماماً قصة المسادا وشخصيات مثل يهودا المكابى، التى يعتبر العديد (خاصة من المسيحيين) بأنها تنتمى إلى «جوهر» اليهودية.

(٢) الأعمال، ١٨ - ١٥ .

(٣) نفس المصدر ٢٥ .

(٤) انظر الملاحظة رقم ٢ ص ١٧ فى هوامش القسم الأول .

(٥) بالنسبة «لليهودية الكلاسيكية» انظر الملاحظة رقم ١ ص ٢٦، فى القسم الأول والملاحظة رقم ١ ص ٤٩ فى القسم الثانى .

٤ - المرحلة الحديثة، التى تتسم بانهيار استبداد الطائفة اليهودية وسلطتها، وبمحاولات اعادة فرضها من جديد، وبين تلك المحاولات فإن الصهيونية هى الأهم.

تبدأ هذه المرحلة فى هولندا فى القرن السابع عشر، وفى فرنسا والنمسا (دون هنغاريا) فى أواخر القرن الثامن عشر، وفى معظم الدول الأوروبية الأخرى فى منتصف القرن التاسع عشر، وفى بعض البلدان الإسلامية فى القرن العشرين (كان يهود اليمن مازالوا يعيشون المرحلة القروسطية «الكلاسيكية» عام ١٩٤٨) وسنذكر بعض الشيء عن تلك التطورات لاحقا.

بين المرحلة الثانية والثالثة، أى مرحلة اليهودية الكلاسيكية، ثمة فجوة زمنية تبلغ عدة قرون، ومازالت معرفتنا الحالية بيهودها ومجتمعها اليهودى ضئيلة للغاية، والمعلومات القليلة التى بحوزتنا مستمدة، جميعها، من مصادر خارجية (غير يهودية)، وفى عالم المسيحية اللاتينية لا توجد لدينا على الإطلاق مدونات أدبية يهودية حتى منتصف القرن العاشر، حيث تصبح المعلومات اليهودية الداخلية، ومعظمها فى الأدب الدينى، أكثر توفرا فى القرن الحادى عشر. قبل هذا التاريخ، نعتمد كليا على الشواهد الرومانية والمسيحية. وفى البلدان الإسلامية ليست الفجوة بهذا القدر من الاتساع، رغم ذلك ثمة معرفة ضئيلة بما كان عليه المجتمع اليهودى قبل عام ٨٠٠ م، والتغيرات التى لابد أن تكون قد طرأت عليه خلال القرون الثلاثة السابقة.

السمات الرئيسية لليهودية الكلاسيكية

لذلك، فلنتجاهل «العصور المظلمة» ونبدأ بالقرنين العاشر والحادى عشر، حيث تتوافر معلومات كثيرة، سواء من مصادر داخلية أو خارجية حول كافة المراكز اليهودية الهامة فى الشرق والغرب. لقد خضعت اليهودية الكلاسيكية التى يمكن إدراك ملامحها بوضوح فى هذه الفترة لتغيرات ضئيلة جدا منذ ذلك الوقت، ومازالت (تحت قناع اليهودية الأرثذوكسية) قوة مؤثرة هذه الأيام.

كيف يمكن تحديد سمات اليهودية الكلاسيكية ؟

وما هى الفروقات الاجتماعية التى تميزها عن المراحل الأولى لليهودية؟

أعتقد أن هناك ثلاث سمات رئيسية :

١ - المجتمع اليهودى الكلاسيكى بلا فلاحين، وبهذا الصدد يختلف اختلافا عميقا عن المجتمعات اليهودية المبكرة فى المركزين، فلسطين وبلاد الرافدين. ويصعب علينا فى العصور الحديثة فهم ما يعنيه ذلك تماما، لذا يجدر بنا بذل جهد لتخيّل كيف كانت القنانة، الفرق الهائل فى معرفة القراءة والكتابة، ناهيك عن التعليم، بين القرية والمدينة فى تلك الفترة. والحرية الأكبر، بما لا يقاس، التى تمتعت بها كافة الأقليات الصغيرة التى لا تتكون من فلاحين لإدراك هذا الأمر، خلال كل فترة اليهودية الكلاسيكية، شكل اليهود رغم كل الاضطهادات التى تعرضوا لها جزءاً لا يتجزأ من

الطبقات ذات الامتيازات. التأريخ اليهودي، خاصة في انجلترا، يمارس التضليل في هذه النقطة، بقدر ما يتعلق الأمر بميله للتركيز على فقر اليهود والتمييز الممارس ضدهم. وقد كان كلاهما صحيحا في وقت من الأوقات، لكن أفقر الحرفيين اليهود، والبائع المتجول، ووكيل صاحب الأرض أو الموظف الصغير، كانوا جميعا أفضل حالا، بما لا يقاس، من القن. وكان هذا صحيحا خاصة في تلك البلدان الأوروبية التي استمرت فيها القنانة حتى القرن التاسع عشر، سواء جزئيا أو كليا: بروسيا، النمسا (بما في ذلك هنغاريا) بولندا، والأراضي البولندية التي استولت عليها روسيا. ومما له دلالة أن تعيش أغلبية كبيرة من اليهود، قبل بداية الهجرة اليهودية الكبرى في الأزمنة الحديثة (حوالي ١٨٨٠) في تلك المناطق، وأن تكون أهم وظائفها الاجتماعية التوسط في قمع الفلاحين نيابة عن النبلاء والتاج.

في كل مكان، أظهرت اليهودية الكلاسيكية كراهية واحتقارا للزراعة كمهنة وللفلاحين كطبقة، أكثر حتى من كراهيتها للأغيار - كراهية لا أعرف لها مثيلا في مجتمعات أخرى - ويتجلى هذا الأمر لأي إنسان على دراية بالأدبين اليديشي أو العبري في القرنين التاسع عشر والعشرين[1].

---

(١) عجنون وباشيفيس الفائزان بجائزة نوبل مثالان لهذا الأمر، ولكن يمكن إعطاء المزيد من الأمثلة خاصة بياليك، الشاعر القومي العبري. في قصيدته الشهيرة «أبي» يصف والده الذي يبيع الفودكا للفلاحين السكارى الذين يصفهم كالحيوانات، هذه القصيدة الشهيرة تدرس في جميع المدارس الإسرائيلية، وهي إحدى قنوات تمرير الموقف المعادي للفلاحين.

إن معظم الاشتراكيين اليهود فى أوروبا الشرقية (أى أعضاء أحزاب وجماعات يهودية صرفة أو ذات أغلبية يهودية) يحملون مسؤولية التغاضى عن ذكر هذه الحقيقة، وقد كان كثير منهم، فى الواقع، ملطخا بمواقف عدائية للفلاحين، ورثوها عن اليهودية الكلاسيكية.

كان «الاشتراكيون» الصهاينة، طبعا، هم الأسوأ فى هذا المجال. ولكن لم تكن البقية، مثل «البوند» أفضل بكثير. وأفضل مثل لذلك معارضة تشكيل تعاونيات فلاحية يدعو رجال الدين الكاثوليك لإقامتها، بدعوى أن هذا «عمل معاد للسامية» لم يندثر هذا الموقف حتى فى وقتنا الحاضر ويمكن رؤيته بجلاء فى الأفكار العنصرية التى يحملها كثير من «المنشقين» اليهود فى الاتحاد السوفياتى تجاه الشعب الروسى، وكذلك فى غياب نقاش هذا الموقف عند عدد كبير من الاشتراكيين اليهود، مثل إسحق دويتشر.

إن كل الدعاية العنصرية حول التفوق المفترض للأخلاق والعقل اليهوديين (التى أسهم فيها كثير من الاشتراكيين اليهود) تقترن بنقص فى الحساسية والمشاعر تجاه معاناة الجزء الأعظم من البشرية، الذى قُمع على نحو خاص فى "السنوات الألف الأخيرة، تجاه الفلاحين.

٢ - كان المجتمع اليهودى يعتمد بالخصوص على الملوك أو النبلاء ذوى السلطان.

ناقشنا فى الملحق شرائع يهودية مختلفة موجهة ضد الأغيار، خاصة التى تأمر اليهود بشتم الأغيار والإحجام عن امتداحهم، أو امتداح

عـادتهم. لكن تلك الشرائح تسمح بـاستثناء وحيـد فقط: الملك غير اليهودي. أو القطب المحلى غير اليهودى صاحب النفوذ (بالعبرية بارتيز، واليديشية بورتيز) اذ يمتدح الملك ويصلى من أجله، ويطاع ليس فى معظم الشؤون المدنية وحسب، بل وبعض الأمور الدينية أيضا. وكما سنرى فى الملحق، يحظر على الأطباء اليهود عموما إنقاذ حياة الناس العاديين يوم السبت، لكنهم يؤمرون ببذل أقصى جهد ممكن لمعالجة الحكام والأقطاب. لعل هذا يبين بصفة خاصة لماذا استخدم الملوك، والنبلاء، والباباوات، والأساقفة فى الغـالب أطبـاء يهـود. ولا يقتصر الأمـر على الأطبـاء فقط، إذا كـان بالإمكان الاعتماد على قيام محصلى الضرائب والجمارك، أو (فى أوروبا الشرقية) نظار العزب اليهود، ببذل أقصى ما بوسعهم فى خدمة الملك أو البارون، أكثر مما يمكن الاعتماد على مسيحى لأداء نفس العمل.

كان الـوضـع القـانونى لأى طـائفة يهودية فى فترة اليهـودية الكلاسيكية يقوم، عادة، على «الامتياز» - على عهد يمنحه حاكم أو أمير (أو فى بولندا بعد القرن السادس عشر، نبيل قوى النفوذ) للطائفة اليهودية، وينعم عليها بحقوق إدارة شؤونها بنفسها - أى يمنح الحاخامات سلطة إمـلاء الأوامـر على اليهـود الأخـرين. تسبب جـزء هـام مـن هـذه الامتيازات، وهى موغلة فى القدم تعود إلى عهد الإمبراطورية الرومانية المتأخرة، فى خلق اكليروس يهودى معفى، مثل رجال الدين المسيحيين فى القرون الوسطى، من دفع الضرائب للملك، ومسموح له فرض ضرائب على الناس العاديين الخاضعين لسلطة - اليهود - بما يخدم مصلحته الذاتية.

ويجدر الانتباه أن هذه الصفقة بين الإمبراطورية الرومانية المتأخرة والحاخامات تسبق بمئة سنة على الأقل نفس الامتيازات التي منحها قسطنطين الأكبر وورثته لرجال الدين المسيحيين.

منذ حوالى سنة ٢٠٠م وحتى أوائل القرن الخامس، كان الوضع القانونى لليهود فى الإمبراطورية الرومانية على النحو التالى : بطريرك يهودى وراثى (يقيم فى طبريا بفلسطين) معترف به كأحد الأعيان الكبار فى سلم الوظائف الرسمية للإمبراطورية، وكمسؤول أعلى لكافة اليهود فى الإمبراطورية[١] . أما من ناحية منصبه كموظف رومانى، فقد كان البطريرك فى الواقع منتميا لنفس الطبقة الرسمية العليا التى تضم القناصل، وكبار القادة العسكريين للإمبراطورية، وكبار الوزراء المحيطين بالعرش(المجمع المقدس) ولا تعلوه من حيث الأهمية سوى الأسرة الإمبراطورية.

كان البطريرك اللامع (كما كان يجرى وصفه دائما فى المراسيم الإمبراطورية) أعلى رتبة، فى الواقع، من حاكم مقاطعة فلسطين. وقد أعدم الإمبراطور ثيودوسيوس الأكبر، وهو مسيحى أرثذوكسى شديد التقوى، حاكم فلسطين لأنه أهان البطريرك.

فى نفس الوقت، كان جميع الحاخامات الذين يعينهم البطريرك بنفسه- لا يدفعون معظم الضرائب الرومانية الباهظة، كما كانوا يحظون

(١) بقدر ما يتعلق الأمر بالسلطة المركزية للبطريركية اليهودية، ألغيت الصفقة من جانب يثوروسيوس الثانى عبر سلسلة من القوانين بلغت ذروتها عام ٢٤٩ م، لكن العديد من الترتيبات المحلية ظلت سارية المفعول.

بالكثير من الامتيازات الرسمية كالإعفاء من الخدمة في مجالس المدن (أحد أوائل الامتيازات التى منحت لرجال الدين المسيحيين فى وقت لاحق) علاوة على ذلك، كانت للبطريرك سلطة فرض الضرائب على اليهود، وحفظ الأمن بينهم بفرض الغرامات والجلد، وأشكال أخرى من العقاب. وقد استخدم البطريرك هذه السلطة لقمع الهراطقة اليهود، و(كما نعرف من التلمود) لمعاقبة الوعاظ اليهود الذين يتهمونه بفرض الضرائب على اليهود الفقراء لفائدته الشخصية.

ونعرف من المصادر اليهودية أن الحاخامات المعفين من دفع الضرائب استخدموا الحرمان الدينى ووسائل أخرى، فى حدود سلطتهم، لتعزيز الهيمنة الدينية للبطريرك، ونسمع أيضا، بطريقة غير مباشرة فى أغلب الأحيان، بمشاعر الكراهية والازدراء التى كانت تعتمل فى صدور الفلاحين وفقراء المدن اليهود تجاه الحاخامات، وكذلك باحتقار الحاخامات للفلاحين اليهود (يعبر عنه عادة باحتقار «الجهلة») ورغم ذلك، استمر هذا الترتيب الكولونيالى بفعل جبروت الإمبراطورية الرومانية. كانت هناك ترتيبات أخرى مشابهة داخل كل بلد على حدة خلال كل فترة اليهودية الكلاسيكية. لكن تأثيراتها الاجتماعية على الطوائف اليهودية تتفاوت نظرا لحجم كل واحدة منها، ففى أماكن تواجد قلة من اليهود كانت التمايزات الاجتماعية قليلة داخل الطائفة، التى تتكون فى العادة من يهود أغنياء ويهود من الطبقة الوسطى، ولدى معظمهم ثقافة حاخامية - تلمودية يعتد بها، أما فى البلدان التى يزداد فيها حجم اليهود، فتظهر طبقة كبيرة من الفقراء اليهود،

يتجلى نفس الانقسام الذى ألمحنا إليه، ونلاحظ تحالف الطبقة الحاخامية مع اليهود الأغنياء لاضطهاد فقراء اليهود بما يخدم مصالحها، وكذلك مصلحة الدولة، أى التاج والنبلاء.

هذا ما كان عليه الوضع خاصة فى بولندا ما قبل العام ١٧٩٥ وسنقوم لاحقا بتقديم فكرة موجزة عن الظروف الملموسة لليهود البولنديين. لكننى أود هنا الإشاره، فقط، أنه بسبب تشكيل طائفة يهودية ضخمة فى ذلك البلد، نشأ انقسام كبير بين الطبقة العليا اليهودية (الحاخامات والأغنياء) والجماهير اليهودية، بداية من القرن الثامن عشر واستمر طوال القرن التاسع عشر. وبقدر ما كانت الطائفة اليهودية تتمتع بسلطة على أفرادها، كان يجرى قمع الاحتجاجات الأولية للفقراء، الذين يتحملون عبء الضرائب، بالقوة المزدوجة لسلطة الأكراه الكامنة فى «الحكم الذاتى» اليهودى والوازع الدينى.

لهذا السبب، وعلى امتداد فترة اليهودية الكلاسيكية(وكذلك فى الأزمنة الحديثة) كان الحاخامات هم الأكثر ولاء، وإن لم نقل تعصبا، فى تأييدهم للسلطة القائمة، وكلما كان النظام رجعيا، كلما ازداد التأييد الحاخامى له.

٣ - يتعارض مجتمع اليهودية الكلاسيكية كليا مع المجتمع غير اليهودى المحيط به، ماعدا الملك (أو النبلاء عندما يسيطرون على الحكم) وهذا ما سنبينه فى الملحق.

إن نتائج تلك السمات الاجتماعية الثلاث، عند تناولها مجتمعة،

تسهم إلى حد كبير فى تفسير تاريخ طوائف اليهودية الكلاسيكية فى البلدان الإسلامية والمسيحية على حد سواء .

لقد كان وضع اليهود أفضل دائما، خاصة بظل أنظمة قوية تحافظ على السمة الإقطاعية، ولم يتبلور فيها بعد الوعى القومى حتى بدرجة بدائية. ولعله كان أفضل بكثير فى بلدان مثل بولندا ما قبل العام ١٧٩٥، أو فى الممالك الايبيرية قبل النصف الثانى من القرن الخامس عشر، حيث كبحت عملية قيام أنظمة ملكية إقطاعية قوية، تستند إلى خلفية قومية، بصفة مؤقتة أو دائمة. فى الواقع، تزدهر اليهودية الكلاسيكية أفضل بظل أنظمة قوية منفصلة عن معظم فئات المجتمع، وفى أنظمة كهذه يشغل اليهود إحدى وظائف الطبقة الوسطى، ولكن بطريقة غير مستقلة. لهذا السبب لا يعارضهم الفلاحون وحسب (الذين لا يبدو دورهم الاجتماعى مهما إلا فى أوقات نادرة ومتقطعة عندما تندلع ثورات شعبية) ولكن، وهذا الأهم، تعارضهم الطبقة الوسطى غير اليهودية أيضا (التى كانت فى طور الصعود فى أوروبا) وكذلك القطاع الشعبى من رجال الدين، وتحميهم الفئة العليا من رجال الدين والنبلاء. ولكن في البلدان التى يقضى فيها على الفوضى الإقطاعية، حيث تدخل طبقة النبلاء فى شركة مع الملك (ومع شريحة من البرجوازية على الأقل) لحكم الدولة، التى تتخذ مظهراً قوميا، أو شكلاً قوميا بدائياً، يتدهور وضع اليهود.

ينطبق هذا التصور العام على البلدان الإسلامية والمسيحية على حد سواء، وسنبينه الآن بإيجاز من خلال نماذج قليلة.

انجلترا وفرنسا وإيطاليا

بما أن الفترة الأولى لإقامة اليهود فى انجلترا كانت قصيرة، وترافقت مع تطور الملكية الإقطاعية القومية الإنجليزية، يصلح هذا البلد كأفضل نموذج للتصور السابق. لقد أحضر اليهود إلى انجلترا بواسطة ويليام الفاتح، كجزء من طبقة النورمان الحاكمة المتحدثة بالفرنسية، ولأداء واجب أساسى هو تقديم القروض للأسياد الروحيين والزمنيين الذين يعجزون دونها عن سداد ديونهم (التى كانت ثقيلة بصفة خاصة فى إنجلترا وقتئذ كما كانت تنتزع بطريقة أقصى مما يوجد فى أى مملكة أوروبية أخرى) كان هنرى الثانى أكبر حماتهم الملكيين، ورسمت «الماغنا كارتا» بداية انحدارهم، الذى استمر خلال صراع البارونات مع هنرى الثالث. وقد ترافق الحل المؤقت لهذا الصراع على يد إدوارد الثانى: تشكيل البرلمان ووضع نظام «عادى» وثابت للضرائب، مع طرد اليهود. بالقدر نفسه، ازدهر اليهود فى فرنسا خلال فترة تكوين المقاطعات الإقطاعية القوية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر، بما فيها المقاطعات الملكية. وكان أفضل حماتهم بين الملوك الكابتين لويس (١١٣٧- ١١٨٠) رغم تقواه المسيحية وورعه. فى ذلك الوقت، اعتبر اليهود أنفسهم من طبقة الفرسان فى فرنسا. (بالعبرية باراشيم) وقد حذرهم رابينوتام، أعلى سلطة يهودية فى فرنسا، من قبول أى دعوة من سيد إقطاعى للإقامة فى أراضيه. إلا إذا منحهم امتيازات مماثلة لامتيازات الفرسان الآخرين. بدأ وضعهم بالتدهور مع ظهور فيليب الثانى أغسطس،

أول من أنشأ التحالف السياسى والعسكرى بين التاج وحركة العوام المدينية الصاعدة، وهبط هبوطا مريعا بظل فيليب الرابع، الوسيم، الذى دعا لأول اجتماع للطبقات العامة لكل فرنسا للحصول على دعمها بمواجهة البابا. ويرتبط الطرد النهائى لليهود من كل فرنسا ارتباطا وثيقا مع إنشاء النظام الملكى لجباية الضرائب وظهور السمة القومية للنظام الملكى .

يمكن تقديم أمثلة مشابهة من بلدان أوروبية أخرى حيث كان اليهود يعيشون فى تلك الفترة. ومع الاحتفاظ بوضع أسبانيا المسيحية وبولندا، من أجل مزيد من المعالجة التفصيلية. ونلاحظ أننا نستطيع فى إيطاليا، حيث كانت لعديد من دول المدن سلطة جمهورية، إدراك نفس الوضع المذكور. فقد ازدهر اليهود بصفة خاصة فى الدول البابوية، وفى مملكتى صقلية ونابولى الإقطاعيتين التوأم (حتى طردهم بأوامر أسبانية ١٥٠٠) وفى الجيوب الإقطاعية فى بيدمونت. ولكن فى المدن التجارية الكبرى والمستقلة مثل فلورنسا كان عددهم ضئيلا ودورهم الاجتماعى هامشيا.

العالم الإسلامى

ينطبق نفس التصور العام على الطوائف اليهودية خلال الفترة الكلاسيكية فى البلدان الإسلامية أيضا، ما عدا استثناء هام هو تناقض طرد اليهود مع الشريعة الإسلامية، لذا لم يكن الطرد معروفا هناك. (لم تسمح الشريعة الكاثوليكية فى القرون الوسطى بطرد اليهود، ولم تمنع ذلك)

لقد ازدهرت الطوائف اليهودية خلال العصر الذهبى الذائع الصيت، ولكن المفسر اجتماعيا بطريقة خاطئة، فى البلدان الإسلامية بظل أنظمة كانت معزولة عن الغالبية العظمى من الناس الخاضعين لحكمها، ولا تعتمد سلطتها إلا على القوة السافرة وجيش من المرتزقة.

أفضل الأمثلة أسبانيا المسلمة، حيث بدأ العصر الذهبى اليهودى الحقيقى هناك (فى الشعر العبرى، والنحو، والفلسفة .. إلخ) مع سقوط الخلافة الأموية فى أسبانيا بعد وفاة المنصور، الحاكم الحقيقى فى واقع الأمر، عام ١٠٠٢، وقيام دول الطوائف القائمة جميعا على القوة السافرة. إن صعود نجم القائد اليهودى الشهير والوزير الأول لمملكة غرناطة، صموئيل الرئيس (شموئيل هانغيد، المتوفى عام ١٠٥٦) وأحد أعظم شعراء العبرية فى كل العصور، قد اعتمد فى المقام الأول على حقيقة أن المملكة التى خدمها كانت نظاما استبداديا لقوة عسكرية صغيرة من البربر تسيطر على المواطنين المتحدثين بالعربية .

وقد ساد وضع مشابه فى ممالك الطوائف الأسبانية- العربية الأخرى. لكن وضع اليهود تدهور نوعا ما مع قيام نظام المرابطين (١٠٨٦- ١٠٩٠) وأصبح محفوفا بالمخاطر بظل نظام الموحدين الشعبى القوى (بعد ١١٤٧) عندما نزح اليهود نتيجة الاضطهاد إلى الممالك الأسبانية المسيحية، حيث كانت قوة الملوك ما تزال ضعيفة.

يمكن إبداء ملاحظات مشابهة بشأن دول الشرق الإسلامى. كانت أول دولة يحقق فيها اليهود قدراً كبيراً من النفوذ هى الإمبراطورية الفاطمية،

خاصة بعد فتح مصر عام ٩٦٩، لأنها كانت تستند إلى حكم أقلية دينية شيعية- إسماعيلية. ويمكن ملاحظة نفس الظاهرة فى الممالك السلجوقية، القائمة على نماذج الجيوش الإقطاعية والمرتزقة، وباضطراد على العبيد (المماليك) وفى الدول التى أعقبتها.

إن فضل صلاح الدين على الطوائف اليهودية أولا فى مصر، ثم فى أجزاء آخرى من إمبراطوريته التى ازدادت اتساعا، لا يرجع إلى صفاته الشخصية فى التسامح والإحسان والحكمة السياسية العميقة وحسب، بل يرجع أيضا إلى صعوده للسلطة كقائد متمرد لجيوش مرتزقة حديثة العهد فى مصر، وبعدئذ كمغتصب لسلطة الأسرة التى خدمها هو ووالده وعمه من قبل.

ولكن، ربما يكون أفضل النماذج الإسلامية- حيث كان وضع اليهود أفضل مما هو عليه فى أى مكان آخر فى الشرق، منذ سقوط الإمبراطورية الفارسية القديمة- هو الإمبراطورية العثمانية، خاصة فى ذروة صعودها فى القرن السادس عشر[1]. وكما يُعرف جيداً، قام النظام العثمانى فى البداية على إقصاء يكاد يكون كليا للأتراك أنفسهم (ناهيك عن المسلمين الآخرين) عن مراكز السلطة السياسية، وعن أهم قطاعات الجيش، أى قوات الإنكشارية التى كانت تتكون من عبيد السلطان المولودين، أصلا،

(١) ربما هناك مثل آخر هو الإمبراطورية البارثية (حتى ٢٢٥ م) ولكن لا يعرف عنها الكثير. لكننا نعرف رغم ذلك أن إقامة الإمبراطورية الساسانية الإيرانية القومية أدت إلى تدهور فورى لوضع اليهود.

كمسيحيين، والذين يتم اختطافهم فى الطفولة وتعليمهم فى مدارس خاصة، وحتى نهاية القرن السادس عشر لم يكن بمقدور أى تركى حر المولد أن يصبح جنديا إنكشاريا، أو أن يتنسم أى منصب سياسى هام فى الدولة. فى نظام كهذا كان دور اليهود فى حقل نشاطهم يشبه دور الإنكشارية فى ميدان نشاطها، لذا كان وضع اليهود أفضل بظل نظام منعزل سياسيا عن معظم الناس الذين يحكمهم. ومع دخول الأتراك أنفسهم (وكذلك بعض الشعوب الإسلامية الأخرى مثل الألبان) إلى الطبقة الحاكمة للإمبراطورية التركية، بدأ وضع اليهود بالتدهور، لكن ذلك التدهور لم يكن حاداً جداً بسبب استمرار طغيان النظام العثمانى وطبيعته غير القومية.

هذه النقطة بالغة الأهمية، كما أعتقد، لأن الوضع الجيد نسبيا لليهود تحت حكم الإسلام عموما، وبظل أنظمة إسلامية معينة على وجه الخصوص، يستخدم من جانب كثير من الفلسطينيين والدعائيين العرب الآخرين بطريقة جاهلة تماما، رغم أنها صادقة النية: فهم يعممون أولا ويختزلون مسائل تاريخية على قدر كبير من الأهمية إلى مجرد شعارات. واذا سلمنا أن وضع اليهود كان، بالمتوسط العام، أفضل تحت حكم الإسلام منه تحت حكم المسيحية، فإن السؤال الهام الذى ينبغى طرحه، بظل أى نوع من الأنظمة كان أفضل أو أسوأ؟ وقد رأينا إلى أين يقودنا مثل هذا التحليل. ثانيا، وهذا يفوق النقطة الأولى أهمية، فى دولة ما قبل الدولة الحديثة، استتبع الوضع الجيد للطائفة اليهودية عموما درجة أكبر من الطغيان الممارس داخل الطائفة بواسطة الحاخامات ضد اليهود الآخرين

ولنقدم مثلا: من المؤكد أن شخصية صلاح الدين، فى سياق الفترة التى عاش فيها، تستوجب الأحترام العميق، ومع هذا الاحترام لا أنسى من جانبى أن الامتيازات التى منحها للطائفة اليهودية فى مصر، واختياره لابن ميمون رئيسا لها (نفيد) قد أدت على الفور لاضطهادات دينية حادة «للخطاة» اليهود على يد الحاخامات. مثلاً، كان من المحظور على «الكهنة» اليهود، (الذين يفترض بأنهم ينحدرون من أصلاب الكهنة القدامى الذين خدموا الهيكل) ليس الزواج من العاهرات[1] وحسب، بل والمطلقات أيضا. وقد انتهك هذا الحظر الأخير، الذى طالما سبب المشاكل، خلال فترة الفوضى فى عهد أواخر الحكام الفاطميين (حوالى ١١٣٠ - ١١٨٠) من جانب أولئك «الكهنة»، الذين خلافا للشريعة الدينية اليهودية، تزوجوا من مطلقات يهوديات على يد قضاة فى محاكم إسلامية (وهى مخولة اسميا لتزويج غير المسلمين) وقد أتاح التسامح الأكبر، الذى ابداه صلاح الدين تجاه «اليهود» عند توليه الحكم، لابن ميمون أصدار أوامر للمحاكم الحاخامية فى مصر لإلقاء القبض على جميع اليهود، الذين تزوجوا زيجات محظورة كهذه، وجلدهم حتى «الموافقة» على تطليق زوجاتهم[2].

بالقدر نفسه، كانت سلطة المحاكم الحاخامية فى الإمبراطورية

(١) يشمل هذا الحظر الزواج من امرأة اعتنقت اليهودية لأن الهالاكاه (كما سنرى فى الملحق) تفترض أن كل النساء غير اليهوديات عاهرات.

(٢) الزواج المحظور لا يعتبر باطلاً عموما إلا بعد حصول الطلاق، والطلاق عمل طوعى من جانب الزوج، ولكن بظل ظروف معينة تجبره المحكمة الحاخامية على «إرادة القيام» (كوفين اوتو عاد شيومار روتزن آنى).

العثمانية قوية جداً، وبالتالى بالغة القسوة. لذلك لا يجب استخدام وضع اليهود فى البلدان الإسلامية فى الماضى كذريعة فى المحاججة السياسية فى الحاضر (أو المستقبل).

أسبانيا المسيحية

استبقيت حتى النهاية التعرض لبلدين كان وضع الطائفة اليهودية فيهما، والتطور الداخلى لليهودية الكلاسيكية بالغ الأهمية: أسبانيا المسيحية[1] (أو بالأحرى شبه الجزيرة الأيبيرية بما فيها البرتغال) وبولندا ما قبل العام ١٧٩٥ سياسياً، كان وضع اليهود فى الممالك المسيحية الأسبانية أعلى مما بلغوه فى أى بلد آخر (ما عدا بعض دول الطوائف وتحت حكم الفاطميين) قبل القرن التاسع عشر وقد عمل عديد منهم بصفة رسمية وزراء للمال لدى ملوك قشتالة، وجباة عامين وإقليميين للضرائب، ودبلوماسيين (يمثلون مليكهم لدى الملوك الأجانب المسيحيين والمسلمين حتى خارج أسبانيا) وأعضاء فى الحاشية، ومستشارين للحكام وكبار النبلاء. ولم تحظ الطائفة اليهودية فى أى بلد آخر، ما عدا بولندا، بسلطات هائلة على اليهود، وتستخدمها علانية وعلى نطاق واسع، بما فى ذلك سلطة الحكم

---

(١) رغم أن الإنجازات اليهودية خلال العصر الذهبى فى أسبانيا الإسلامية (١٠٠٢-١١٤٧) كانت أكثر إشراقاً فإنها لم تدم، على سبيل المثال، معظم الشعر العبرى الرائع فى ذلك العصر نسيه اليهود لاحقاً، ولم تتم استعادته إلا فى القرنين التاسع عشر والعشرين.

بالإعدام، كما كان الشأن فى أسبانيا. منذ القرن الحادى عشر، كان اضطهاد القرائين (فرقة يهودية مهرطقة) وجلدهم حتى الموت، إذا لم يتوبوا، ممارسة شائعة فى قشتالة، كما كانت تُجدع أنوف النسوة اليهوديات اللاتى يمارسن الجنس مع رجال من الأغيار، على يد حاخامات يفسرون أنه «بهذه الطريقة تفقد المرأة جمالها مما يرغم عشيقها غير اليهودى على كراهيتها». وكذلك تُقطع أيدى اليهود الذين تبلغ بهم الوقاحة حد مهاجمة قاض يهودى، وكان الزناة يسجنون بعد التشهير بهم فى الحى اليهودى. وفى النزاعات الدينية كانت تقطع ألسنة الذين يُعتقد بأنهم من المهرطقين.

تاريخياً، اقترن هذا الأمر بالفوضى الإقطاعية، ومحاولة عدد ضئيل من الملوك «الأقوياء» الحكم بالقوة السافرة فقط، متجاهلين المؤسسات النيابية، والمحاكم، التى ظهرت للوجود حديثاً فى ذلك الوقت. وفى هذا الصراع، لم تكن القوة السياسية والمالية لليهود على قدر كبير من الأهمية وحسب، بل وقوتهم العسكرية أيضاً (على الأقل فى أهم مملكة، قشتالة) مثل واحد فقط يفى بالغرض: بلغ كل من سوء الإدارة الإقطاعى والنفوذ السياسى لليهود ذروتيهما فى عهد بيدرو الأول، الذى يكنى بصراب، القاسى. وقد عملت الطوائف اليهودية فى طوليدو وبورغوس، ومدن أخرى كثيرة، عملياً، كحاميات عسكرية تابعة له فى الحرب الأهلية الطويلة بينه وبين أخيه غير الشقيق هنرى، حاكم تراستمارا، الذى أصبح بعد انتصاره هنرى الثانى (١٣٦٩ - ١٣٧٩)(١) وقد منح بيدرو المذكور يهود قشتال حق

---

(١) خلال تلك الحرب، استخدم هنرى ملك تراستمارا الدعاية المعادية لليهود، رغم أن أمه، ليونور دوغوزمان، وهى من أسرة قشتالية نبيلة عالية المقام، كانت جزئيا ذات أصول يهودية (فى أسبانيا فقط حدثت زيجات مختلطة بين الأسر النبيلة واليهود) وبعد انتصاره استخدم اليهود فى أرفع المناصب المالية.

شن حملة تفتيش بطول البلاد وعرضها ضد المنحرفين الدينيين اليهود، قبل مائة سنة من إنشاء محكمة التفتيش الكاثوليكية المقدسة، الأكثر شهرة.

وكما حدث فى بلدان أوروبية غربية أخرى، ترافق الصعود التدريجى للوعى القوى الملتف حول الملكية، والذى بدأ تحت حكم أسرة تراستمارا، وبعد مسيرة متعثرة بلغ ذروته تحت حكم الملكين الكاثوليكيين فرديناند وإيزابيلا، فى البداية مع انحدار فى وضع اليهود، ثم مع ظهور حركات شعبية وضغوط ضدهم، مما أدى فى النهاية إلى طردهم.

عموماً، كان اليهود تحت حماية النبلاء والفئات العليا من رجال الدين، بينما كانت تعاديهم الفئات الأكثر قرباً من الشعب، خاصة طرق الرهبان الذين يعيشون على الصدقات، والذين كانوا أكثر انغماساً فى حياة الطبقات الدنيا. كما كان أكبر عدوين لليهود، توركومادا والكاردينال كسيمنس، من المصلحين الكبار، أيضاً، فى الكنيسة الأسبانية، لجعلها أقل فساداً، وأكثر اعتماداً على النظام الملكى، بدلا من استغلالها لصالح الأرستقراطية الإقطاعية.

بولــندا

بولندا ما قبل العام ١٧٩٥- جمهورية إقطاعية ذات ملك منتخب- هى النموذج النقيض، فهى تبين كيف كان وضع اليهود، قبل قيام الدولة الحديثة، فائق الأهمية اجتماعياً، وكيف كانت إدارتهم الذاتية لشؤونهم عظيمة الشأن، بظل نظام معاق كليا إلى حد التحلل التام.

لعبت عدة عوامل دوراً فى جعل مسيرة التطور البولندية بطيئة خلف بلدان كإنجلترا وفرنسا، حيث نشأت فيها ملكية من طراز إقطاعى قوى، لكن دون مؤسسات نيابية، فى القرن الرابع عشر فقط، خاصة فى عهد كازمير الأكبر (١٣٣٣- ١٣٧٠) وبعد وفاته على الفور، أسفر تغير الأسرة المالكة، إضافة إلى عوامل أخرى، عن نمو سريع لسلطة النبلاء، وصغار النبلاء، لذا ما إن جاء عام ١٥٧٢ حتى كانت عملية تقليص دور الملك إلى مجرد شخصية رمزية، وإقصاء كافة المقاطعات غير النبيلة عن السلطة السياسية قد اكتملت.

وفى القرنين التاليين، تحول غياب الحكومة إلى نوع من الفوضى المعترف بها، إلى درجة أن إصدار حكم بحق نبيل ما من جانب المحكمة كان يستدعى إصدار تصريح بشن حرب صغيرة لتنفيذه (لم تكن هناك طريقة أخرى) وقد شاركت فى نزاعات الأسر النبيلة الكبرى فى القرن الثامن عشر جيوش خاصة تعد بعشرات الآلاف من الأشخاص، أى أكبر حجماً بكثير من القوات المزرية لدى الجيش النظامى للجمهورية.

ترافقت هذه العملية مع انحطاط وضع الفلاحين البولنديين (الذين كانوا أحراراً فى مطلع القرون الوسطى) إلى درجة القنانة التامة، التى يصعب تمييزها عن العبودية، وهى بالتأكيد الأسوأ فى أوروبا. وقد لعبت رغبة النبلاء فى البلدان المجاورة بالتمتع بسلطة مثل سلطة النبيل البولندى على فلاحيه (بما فيها سلطة الحياة والموت دون أى حق بالشكوى) دوراً أساسياً فى توسّع بولندا. وكان الوضع فى الأراضى «الشرقية» لبولندا

(بيلوروسيا وأوكرانيا) التى استعمرت واستوطنت من جانب الفلاحين الذين تم تحويلهم حديثا إلى أقنان، أكثرها تدهوراً على الإطلاق[1].

ويبدو أن عدداً ضئيلاً من اليهود (فى مراكز هامة) كان يقطن بولندا منذ إقامة الدولة البولندية، وفى القرن الثالث عشر بدأت هجرة يهودية بأعداد كبيرة، وتزايدت فى عهد كازمير الأكبر. على أثر انحطاط وضع اليهود في أوروبا الغربية والوسطى.

ولا يُعرف الكثير عن اليهود البولنديين فى تلك الفترة، ولكن مع تدهور النظام الملكي فى القرن السادس عشر - خاصة فى عهد سيغموند الأول، العجوز (١٥٠٦ - ١٥٤٨) وابنه سيغموند الثانى، أغسطس (١٥٤٨ - ١٥٧٢) - حقق اليهود فى بولندا مكانة اجتماعية وسياسية مرموقة، ومصحوبة، كالعادة، بدرجة أكبر من الاستقلال فى إدارة شؤونهم الذاتية، فى ذلك الوقت بالذات نال اليهود أهم امتيازاتهم، التى بلغت ذروتها مع تأسيس «لجنة المقاطعات الأربع» وهى هيئة يهودية للإدارة الذاتية فعالة جداً للحكم والتشريع بالنسبة لجميع اليهود فى المقاطعات البولندية الأربع. وقد كانت إحدى وظائفها الهامة جمع الضرائب من اليهود، مع الاحتفاظ بجزء منها لفائدتها ولفائدة الطوائف اليهودية المحلية، وتقديم الباقى لخزينة الدولة.

---

(١) حتى القرن الثانى عشر كان وضع الأقنان فى بولندا أسوأ عموماً من وضعهم فى روسيا. فى ذلك القرن، أصبحت بعض السمات المعينة القنانة الروسية، مثل بيع الأقنان علناً أسوأ مما كان عليه الوضع فى بولندا، لكن الحكومة القيصرية الروسية حافظت دائماً على سلطات معينة على الفلاحين الأرقاء، مثلاً حق تجنيدهم فى الجيش الوطنى.

مــاذا كان دور اليهـود البـولنديين منذ بداية القرن السادس عشر حتى عام ١٧٩٥ ؟

على أثـر تـدهـور السلطة الملكية، استـولى النبـلاء بسرعة علـى دور الملك المعتـاد فى العلاقـة مع اليهـود- مما أسفـر عـن نتـائج دائمـة ومأساوية لليهـود أنفسهـم والنـاس العـاديين فى بـولندا - لقـد استخدم النبلاء اليهود بطـول بـولندا وعـرضهـا وكلاء لهم مـن أجـل زعزعـة السلطة المالية للمدن الملكيـة، التـى كانت ضعيفـة بـأى حـال من الأحـوال. ومـن بين جميـع دول المسيحية الغربية، فى بولندا فقط، كانت أملاك النبيل داخل المدن الملكية معفاة من قوانين المدينة وقوانين النقابات الصناعية والتجارية. وفى أغلب الأحيـان، نصب النبـلاء وكـلائهـم اليهـود للإشراف على أملاكهم، مما تسبب بصراع دائم. كان اليهودى يخرج «منتصراً» دائما، بمعنى أن المدينة لا تستطيع إخضـاعـه لقـوانينها أو طـرده منها، ولكن فى الإضطرابات الشعبية المتكـررة كانت حيـاة اليهود (وأكثر من ذلك أملاكهم) تتعرض للخطر، رغم ذلك كان النبلاء يحصلون على الفائدة. وقد أسفر الاستخدام المتكرر لليهود كـوكـلاء تجـاريين للنبـلاء عـن ربـح للإعفـا ء مـن معظم المكـوس والتعـريفات البولندية. على حساب خسارة البرجوازية المحلية.

لـكـن أكثر النتـائج ديمـومـة ومـأسـاوية وقعت فى المقـاطعات البولندية الشرقية - المنطقة الواقعة إلى الشرق من الحدود السوفياتية الحالية تقريبا، بما فيها معظم أوكرنيا الحالية وصولاً حتى التخم العظيم للغة الروسية (حتى عام ١٦٤٨، كانت الحدود البولندية أبعد إلى الشرق من نهر الدنيبر، لذلك

كانت بولتافا، مثلا، داخل بولندا) - فى تلك الأراضى الشاسعة لم تكن هناك مدن ملكية، وقد أنشأ النبلاء مدناً كانت تابعة لهم. سكن اليهود تلك المدن بمفردهم تقريبا، وحتى عام ١٩٣٩، كان اليهود يمثلون حوالى تسعين بالمائة من سكان العديد من المدن البولندية شرقى نهر بوغ، كما كانت هذه الظاهرة الديمغرافية أكثر بروزاً فى تلك المنطقة من بولندا، التى ضمتها روسيا القيصرية، والمعروفة باسم منطقة الاستيطان اليهودى.

عمل كثير من اليهـود خارج المدن، خاصة فى المناطق الشرقية كمراقبين مباشرين ومضطهدين للفلاحين الذين تحولوا إلى أقنان - نظار عزب - (فى أيديهم سلطة صاحب الأرض القسرية) ومستأجرين لاحتكارات إقطاعية معينة مثل مطاحن الحبوب، ومعامل تقطير المشروبات الكحولية والحانات (ولديهم حق التفتيش بقوة السلاح فى بيوت الفلاحين بحثاً عن الإقطاعية. باختصار، كان اليهود فى بولندا الشرقية فى عهد النبلاء (والكنيسة التابعة للإقطاع والمكونة كلياً من النبلاء) بمثابة المستغلين المباشرين للفلاحين، كما كانوا يمثلون الغالبية العظمى من سكان المدن.

ولاشك أن معظم الفائدة التى كانوا ينتزعونها من أيدى الفلاحين، كانت تذهب، بطريقة أو بأخرى، للسادة الإقطاعيين، ولاشك، أيضاً، أن إضطهاد وإخضاع اليهود من جانب النبلاء كان حاداً، وتدلنا الكثير من الوقائع التاريخية على العديد من القصص المرعبة للمعاناة والإهانة التى ألحقها النبلاء «بيهودهم». ولكن، كما لاحظنا سابقاً، كان الفلاحون يعانون من اضطهاد أشد بشاعة على أيدى أسياد الأرض واليهود. وقد يفترض

الإنسان، أن الثقل الكامل للشرائع اليهودية الدينية المعادية للأغيار كان يقع، ما عدا فترات الهبات الفلاحية، على كواهل الفلاحين. وكما سنرى فى الملحق كانت تلك الشرائع تعلق أو تتعرض للتخفيف فى الحالات التى يخشى منها إثارة عداء ضد اليهود، ولكن كان بالإمكان دائما تجاهل عداء الفلاحين كأمر غير مؤثر، طالما كان ناظر العزبة اليهودى ينعم«بسلام» سيد كبير.

ظل الوضع راكداً حتى حلول عهد الدولة الحديثة، وفى تلك الأثناء كانت بولندا مفككة الأوصال، لذلك كانت البلد الكبير الوحيد بين بلدان المسيحية الغربية التى لم يطرد منها اليهود أبداً، لم تكن هناك إمكانية لصعود طبقة وسطى من بين فلاحين مستعبدين تماماً، وكانت البرجوازية القديمة محدودة جغرافياً وضعيفة تجارياً، ولذا بلا نفوذ. إجمالاً، ازدادت الأوضاع سوءاً، ولكن دون وقوع تغيرات جوهرية.

اتخذت الأوضاع الداخلية للطائفة اليهودية طريقاً مشابهاً، ففى الفترة من ١٥٠٠-١٧٩٥، أحد أكثر الفترات تأثراً بالخرافات فى تاريخ اليهودية، كان يهود بولندا هم الأبرز، بين جميع الطوائف اليهودية، فى تعلقهم بالخرافات وتعصبهم الدينى. وقد استخدمت السلطة الضخمة للإدارة الذاتية اليهودية باضطراد لإخماد كافة أشكال الفكر الإبداعى والجاد، وتعزيز أكثر أشكال استغلال فقراء اليهود بشاعة، على يد اليهود الأغنياء المتحالفين مع الحاخامات، وتبرير دور اليهود فى اضطهاد الفلاحين خدمة للنبلاء.

هنا، أيضاً، لم تكن ثمة طريقة للخروج من هذا الوضع، سوى طريقة التحرير من الخارج، إن بولندا ما قبل العام ١٧٩٥، حيث كان الوضع الاجتماعى لليهود بالغ الأهمية، تُبيّن أكثر من أى دياسبورا كلاسيكية أخرى، وأفضل من أى بلد آخر، إفلاس اليهودية الكلاسيكية.

اضطهاد اليهود

تعرض اليهود طوال فترة اليهودية الكلاسيكية فى أغلب الأحيان للاضطهاد[1]، هذه الحقيقة تستخدم الآن باعتبارها «الذريعة» الرئيسية للمدافعين عن الديانة اليهودية وشرائعها المعادية لغير اليهود، وللدفاع على نحو خاص عن الصهيونية. وبالطبع، فإن إبادة النازية لخمسة أو ستة ملايين من يهود أوروبا، يفترض بها أن تكون تتويجاً لذلك الخط. لذا ينبغى فحص هذه الظاهرة وكذلك جانبها المعاصر. وهذا هام بصفة خاصة لأن المنحدرين من أصلاب يهود بولندا ما قبل العام ١٧٩٥ (يطلق عليهم فى أغلب الأحيان يهود أوروبا الشرقية تمييزاً لهم عن اليهود من الأراضى الواقعة تحت التأثيرات الثقافية الألمانية فى مطلع القرن التاسع عشر بما فيها النمسا الحالية، وبوهيميا، ومورافيا) يتمتعون الآن بسلطة سياسية مهيمنة فى

---

(١) خلال الفترة السابقة كانت اضطهادات اليهود نادرة. ويصدق هذا على الإمبراطورية الرومانية حتى بعد التمردات اليهودية الخطيرة. وغيبون ومصيب فى امتداح تسامح أنطونيوس بيوس (وماركوس أوريليوس) مع اليهود، بُعيد تمرد باركوخبا عام ١٣٢ - ١٣٥ ق.م.

إسرائيل، وكذلك فى الطوائف اليهودية فى الولايات المتحدة، وبلدان أخرى ناطقة بالإنجليزية وبسبب خصوصية ماضيهم، فإن طريقة التفكير هذه متجذرة بينهم على وجه الخصوص، أكثر من أى يهود آخرين.

يجدر بنا فى البداية إقامة تمييز واضح بين اضطهاد اليهود خلال فترة اليهودية الكلاسيكية من ناحية، والإبادة النازية من ناحية أخرى. كانت الأولى حركات شعبية تأتى من أسفل، بينما جرى استلهام الثانية وتنظيمها وتنفيذها من أعلى: على يد موظفى الدولة فى الواقع. إن أعمالاً من الإبادة المنظمة التى مارستها الدولة النازية نادرة المثال، نسبياً، فى التاريخ الإنسانى، رغم وجود حالات أخرى(إبادة التسامانيين وشعوب مستعمرة أخرى) علاوة على ذلك، استهدف النازيون إبادة شعوب أخرى إلى جانب اليهود، أبيد الغجر مثلما أبيد اليهود، وكانت إبادة السلاف فى الطريق بواسطة القتل المنظم لملايين من المدنيين وأسرى الحرب. رغم ذلك فإن الاضطهاد المتكرر لليهود فى العديد من البلدان خلال الفترة الكلاسيكية هو النموذج (والمبرر)الذى يستخدمه الساسة الصهاينة فى اضطهادهم للفلسطينيين، مثل نفس الذريعة التى يستخدمها المدافعون من اليهودية عموما، وهذه الظاهرة هى التى سنوليها العناية الآن.

تجدر الإشارة إلى أنه فى كل أسوأ أنواع الاضطهادات التى تعرض لها اليهود، أى التى نجم عنها سقوط قتلى بينهم، كانت النخبة الحاكمة- الإمبراطور، والبابا، والملوك، والأرستقراطية العليا، وكبار رجال الدين، وكذلك البرجوازية الغنية فى المدن ذات الإدارة الذاتية- دائماً إلى جانب

اليهود، أما من يناصبونهم العداء فكانوا دائماً من أبناء الطبقات المسحوقة والمستغلة أكثر من غيرها وأولئك القريبين منها مثل طرق الرهبان المتسولين[1]. صحيح أنه في معظم الحالات (ولا أعتقد كلها) دافع أعضاء النخبة عن اليهود ليس بدافع الإنسانية، أو التعاطف معهم كبشر، ولكن لنفس السبب الذى يستخدمه الحكام عموماً لتبرير مصالحهم. حقيقة أن اليهود كانوا ذوى فائدة وربح (لهم)، والدفاع عن استتباب «الأمن والنظام»، وكراهية الطبقات الدنيا، وخشية أن تتحول الاضطرابات المعادية لليهود إلى تمرد شعبى عام، ولكن تبقى حقيقة أنهم دافعوا عن اليهود. لهذا السبب، كانت كل المذابح التى تعرض لها اليهود فى الفترة الكلاسيكية جزءاً من تمردات فلاحية أو حركات شعبية أخرى، فى أوقات تضعف فيها الحكومة لسبب أو لآخر. يصدق هذا حتى فى الحالة الاستثنائية جزئياً لروسيا القيصرية. لقد شجعت الحكومة القيصرية من وراء الستار، عبر شرطتها السرية، المذابح ضد اليهود، لكنها فعلت ذلك فى أوقات ضعفها بالخصوص

---

(١) يمكن التحقق من هذا العمل بسهولة بفحص تفاصيل حالات الاضطهاد وقد أهمل الإشارة إلى هذه الحقيقة معظم المؤرخين فى العصور الحديثة. وأحد الأمثلة المشرقة هو كتاب «نشوء أوروبا المسيحية» لهوج تريفور وبر (Thames and Hudson ١٩٥٦) ص ١٧٣ - ١٧٤. كما أنه أحد القلة القليلة من المؤرخين المحدثين الذين ذكروا الدور المهيمن لليهود فى تجارة العبيد فى بداية القرون الوسطى بين أوروبا المسيحية (والوثنية) والعالم الإسلامى (نفس المصدر ص ٩٢ - ٩٣) ولتشجيع هذا العمل الكريه، الذى لا يتسع المجال لمناقشته هنا، سمح ابن ميمون لليهود، باسم الديانة اليهودية باختطاف الأطفال غير اليهود واسترقاقهم، ولاشك أن رأيه استند إلى أو عكس ممارسة شائعة فى عصره.

(بعد اغتيال الكسندر الثانى ١٨٨١، والفترة التى تسبق وتلى ثورة ١٩٠٥) وحتى عندئذ حرصت على تدارك انهيار «الأمن والنظام» وفى فترات أقصى القوة - مثلا فى عهد نيقولا الأول، أو فى الجزء الأخير من عهد الكسندر الثالث، عندما حُطمت المعارضة - لم يتسامح النظام القيصرى إزاء المذابح، رغم ازدياد حدة التمييز الرسمى ضد اليهود.

يمكن استخلاص القاعدة العامة من كافة المذابح الرئيسية التى تعرض لها اليهود فى أوروبا المسيحية. خلال موجة الغزوات الصليبية الأولى، لم تكن جيوش الفرسان النظامية، تحت قيادة الدوقات والكونتات المشهورين، هى التى تحرشت باليهود، بل جيوش العوام العفوية المكونة كلها تقريبا من الفلاحين والمعوزين الذين جاءوا فى أعقاب بطرس الناسك. وفى كافة المدن عارض المطران، أو ممثل الإمبراطور تلك الجيوش، وحاول غالبا دون جدوى، حماية اليهود[1]. كانت الاضطرابات المعادية لليهود فى إنجلترا، والتى ترافقت مع الغزوة الصليبية الثالثة، جزءاً من حركة شعبية تستهدف المسؤولين الملكيين أيضا، وقد عاقب ريتشارد الأول بعض مثيرى الشغب. ووقعت مذابح اليهود خلال انتشار الطاعون خلافاً للأوامر الصارمة الصادرة عن البابا، والإمبراطور، والمطارنة، والأمراء الألمان. وفى المدن الحرة فى

(١) يمكن العثور على أمثلة فى أى تاريخ للحملات الصليبية انظر بصفة خاصة

S. Runciman, Asistory of the crusades, Voll Book 3 chapl

الحملة الألمانية والهزيمة اللاحقة لهذا الجيش على يد الجيش الهنغارى «بدت لمعظم المسيحيين كعقاب عادل نزل من السماء على قتله اليهود» (نفس المصدر نهاية

ستراسبورغ، مثلا، كانت المذابح مسبوقة بثورة شعبية تم خلالها الإطاحة بمجلس المدينة الأوليغاركى، الذى يحمى اليهود، وتنصيب مجلس أكثر شعبية بدلاً منه. مذابح اليهود الكبرى فى أسبانيا عام ١٣٩١، وقعت بظل حكومة وصاية على العرش ضعيفة، وفى وقت كانت فيه البابوية، التى أضعفها الانقسام بين الباباوات المتنافسين، غير قادرة على لجم الرهبان المتسولين.

ربما أكثر الأمثلة بروزاً مذبحة اليهود الكبرى خلال ثورة خميلينكى فى أوكرانيا (١٦٤٨) التى بدأت كتمرد للضباط القوزاق، وسرعان ما تحولت إلى حركة شعبية واسعة النطاق للأقنان المسحوقين: ثار المحرومون، والمواطنون، والأوكرانيون، والأرثذوكس (الذين تضطهدهم الكنيسة الكاثوليكية البولندية) ضد سادتهم الكاثوليك البولنديين وخاصة ضد وكلاء أسيادهم، ورجال الدين، واليهود[1]. ظلت هذه الانتفاضة الفلاحية النموذجية ضد الاضطهاد الساحق، والتى لم تكن مصحوبة بمذابح قام بها المتمردون وحسب، بل وفظائع أكثر هولاً ارتكبتها الجيوش الخاصة للأسياد البولنديين أيضاً[2]، محفورة فى وعى يهود أوروبا الشرقية حتى يومنا هذا- ولكن ليس باعتبارها ثورة فلاحية، ثورة مسحوقين ومعدمين، أو حتى بمثابة انتقام من كل خدم النبلاء البولنديين، ولكن باعتبارها عملاً

(١) John Stoye, "Europe Unfolding 1648-1688 ", The Fontanatlistory of Europe, P 46.

(٢) هذه السمة الأخيرة غير مذكورة طبعاً فى التواريخ الرسمية اليهودية التى وصلتنا. وقد كانت العقوبة المعتادة لفلاح متمرد أو «وقح» هى الخوزقة.

مجانياً من أعمال العداء للسامية، استهدف اليهود لذاتهم. وفى الواقع، كثيراً ما يفسّر تصويت الوفد الأوكرانى فى الأمم المتحدة، وتفسّر السياسة السوفياتية فى الشرق الأوسط عموما، فى الصحافة الإسرائيلية باعتبارها «ميراث خميلينكى» أو أعمال «أحفاده».

اللاسامية الحديثة

تعرضت طبيعة الاضطهادات المعادية لليهود لتغير جذرى فى الأزمنة الحديثة، حيث تختفى مع حلول الدولة الحديثة، وإلغاء القنانة، وتحقيق قدر أدنى من الحقوق الفردية، الوظيفة الاجتماعية - الاقتصادية لليهود، وتختفى معها سلطات الطائفة اليهودية على أفرادها: ينال اليهود الأفراد بأعداد متزايدة حرية الانخراط فى المجتمع العام لبلدانهم. ومن الطبيعى أن يثير هذا الانتقال ردة فعل عنيفة من جانب اليهود (خاصة حاخاماتهم) وتلك العناصر فى المجتمع الأوروبى التى عارضت المجتمع المفتوح، والتى نظرت لكل عملية تحرير الأفراد بكراهية شديدة.

ظهرت اللاسامية الحديثة أولا فى فرنسا وألمانيا ثم فى روسيا، بعد عام ١٨٧٠. وخلافاً للرأى السائد لدى الاشتراكيين اليهود، لا أعتقد أن بداياتها أو حتى تطورها اللاحق، حتى وقتنا الحاضر، يرجع إلى «الرأسمالية». نقيضاً لذلك، أعتقد أن الرأسماليين الناجحين فى كل البلدان كانوا أحراراً بوضوح من اللاسامية، وفى أوائل البلدان التى نشأت فيها

الرأسمالية فى البداية وبأكثر أشكالها شمولية - مثل إنجلترا وبلچيكا- كانت اللاسامية أقل انتشاراً من أى مكان آخر[1].

كانت اللاسامية الحديثة (١٨٨٠ - ١٨٩٠) ردة فعل لرجال حائرين كرهوا المجتمع الحديث بعمق بكافة جوانبه الطيبة والشريرة، وكانوا من المؤمنين المتحمسين بنظرية المؤامرة فى التاريخ. وضع اليهود فى دور كبش الفداء بسبب انهيار المجتمع القديم (الذى يتخيل الحنين اللاسامى أنه كان أكثر انغلاقاً وتنظيماً مما كان عليه فى الواقع) ووجود كل ما يثير الانزعاج فى الأزمنة الحديثة. ولكن منذ البداية جابه اللاساميون ما تجلى أمامهم كمشكلة صعبة: كيف يعرفون كبش الفداء هذا؟ وبأى تعبيرات شعبية؟ وما هو العامل المشترك بين الموسيقى اليهودي، والحرفي، والمصرفي، والمتسول - خاصة بعد انحلال السمات الدينية العامة المشتركة، على الأقل خارجياً؟ كانت «نظرية» العرق اليهودى هى الجواب اللاسامى الحديث لهذه المشكلة.

بالمقابل، كانت المعارضة المسيحية القديمة، وحتى الإسلامية بدرجة أكبر، لليهودية الكلاسيكية متحررة بوضوح من العنصرية. ولاشك إن هذا راجع للسمة الكونية للمسيحية والإسلام، وكذلك لعلاقتهما الأصلية باليهودية (وبخ القديس توماس مور مرارا امرأة اعترضت عندما قال لها ان مريم العذراء كانت يهودية) لكننى أعتقد أن السبب الأكثر أهمية هو الدور

(١) يمكن ملاحظة نفس الشىء فى مناطق مختلفة. ففى ألمانيا، مثلاً، كانت بافاريا الزراعية أكثر عداء للسامية من المناطق الصناعية.

الاجتماعى لليهود كجزء لا يتجزأ من الطبقات الحاكمة . لقد عومل اليهود فى كثير من البلدان معاملة النبلاء، وبمجرد اعتناقهم لديانة أخرى كانوا يستطيعون التزاوج مع أعلى مراتب النبلاء. ولم يكن من الممكن لنبلاء قشتالة وأراغون فى القرن الخامس عشر، أو أرستقراطية القرن الثامن عشر فى بولندا - إذا نظرنا إلى الحالتين كان التزاوج مع اليهود منتشراً على نطاق واسع - أن يقبلوا بالتزاوج مع الفلاحين الأسبان أو الاقنان البولنديين، بصرف النظر عما أضفاه الكتاب المقدس من ثناء على الفقراء.

إنها أسطورة «العرق» اليهودى- خصائص غير بادية للعيان لكنها مهيمنة داخل «اليهود» بمعزل عن التاريخ، أو الدور الاجتماعى، أو أى شيء آخر- التى تشكل أهم علامة فارقة تميز اللاسامية الحديثة. وقد أدرك كنه هذا الأمر فى الواقع بعض زعماء الكنيسة عندما ظهرت اللاسامية المعاصرة أولا كحركة على قدر من القوة. عارض بعض الزعماء الكاثوليك الفرنسيين، مثلاً، النظرية العنصرية الجديدة التى روج لها درومنت، أول معاد فرنسى شعبى حديث للاسامية وصاحب الكتاب السيء الصيت «يهود فرنسا» (١٨٨٦) الذى حقق انتشاراً واسعاً[١]. كما جابهت اللاسامية الألمانية المبكرة معارضة مشابهة.

وتجدر الإشارة أن بعض الجماعات الهامة من المحافظين الأوروبيين

---

(١) كان رفض الكنيسة الاعتراف بأن اليهودى يظل دائماً يهودياً سبب آخر لألم كاثوليكى شديد التفاخر مثل دورمونت. وقد وصف أحد مساعديه الرئيسيين، جوليس غورين، شعوره بالامتعاض عندما احتج عليه الأب اليسوعى الذائع الصيت دولوك، بسبب مهاجمته بعض معتنقى المسيحية من اليهود الذين يحملون اسم درايفوس.

D.W. Brogan, The development of Modern France Voll, Paperback Harper Torchbooks, 1966, P 227.

كانت مهيئة تماماً لمجاراة اللاسامية الحديثة واستخدامها بما يخدم أهدافها الخاصة، بينما كان اللاساميون على أهبة الاستعداد لاستخدام المحافظين عندما تسنح الفرصة، رغم عدم وجود أوجه كثيرة للتشابه، من حيث الجوهر، بين الفريقين. لكن الضحايا الذين هوجموا بأكبر قدر من القسوة (على يد دورمونت المذكور) لم يكونوا أبناء روتشلد، بل النبلاء الكبار الذين كانوا يحفون بهم. ولم يستثن دورمونت العائلة المالكة، أو المطارنة، أو حتى البابا[1]. ورغم ذلك، كان الكثير من كبار النبلاء الفرنسيين والمطارنة والمحافظين عموماً سعداء جداً باستخدامهم لدورمونت واللاسامية خلال أزمة قضية درايفوس، فى محاولة لإسقاط النظام الجمهورى.

ظهر هذا النوع من التحالف الانتهازى مجدداً مرات عديدة فى مختلف البلدان الأوروبية حتى هزيمة النازية. لقد أعمت كراهية المحافظين للراديكالية، وخصوصاً كافة أشكال الاشتراكية، العديد منهم عن طبيعة شركائهم السياسيين. وفى كثير من الحالات كانوا على استعداد، حرفياً، للتحالف مع الشيطان، متناسين المثل القديم بأن الإنسان يحتاج إلى ملعقة طويلة جداً لتناول العشاء معه. لقد اعتمدت فعالية اللاسامية الحديثة وتحالفاتها مع المحافظين على عدة عوامل:

أولا، إمكانية استخدام التقاليد الدينية المسيحية القديمة المعارضة لليهود، التى عاشت فى كثير (ولكن ليس كل) البلدان الأوروبية، إذا لقى الأمر تأييداً من جانب رجال الدين، أو على الأقل عدم معارضة، للانضمام للجوقة اللاسامية. وقد تحدد الرد الفعلى لرجال الدين فى كل بلد على حده، إلى حد كبير، بالظروف الملموسة التاريخية والاجتماعية المحلية.

---

(١) نفس المصدر .

بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية، كان الاتجاه لتحالف انتهازى مع اللاسامية قوياً فى فرنسا، ولم يكن كذلك فى إيطاليا. وكان قوياً فى بولندا وسلوفاكيا، ولم يكن كذلك فى بوهيميا. وكانت للكنيسة الأرثذوكسية الإغريقية اتجاهات لا سامية سيئة الصيت فى رومانيا لكنها اتبعت نهجاً مغايراً فى بلغاريا، وبين الكنائس البروتستانتية، كانت الكنيسة الألمانية منقسمة انقساماً عميقاً حول هذا الموضوع، ففى حين مالت كنائس (مثل اللاتفية والأستونية) نحو اللاسامية، كان الكثير منها (مثلاً الهولندية والسويسرية والسكندنافية) من أوائل من أدان اللاسامية.

ثانيا، كانت اللاسامية، إلى حد كبير، تعبيراً عن كراهية الأجانب، ورغبة فى إيجاد مجتمع «نقى» يتكون من نسيج واحد. لكن اليهودى، فى العديد من البلدان الأوروبية حوالى العام ١٩٠٠ (وفى الواقع حتى وقت قريب) كان من ناحية فعلية «الأجنبى» الوحيد. يصدق هذا القول خصوصاً على ألمانيا. من حيث المبدأ، كره العنصريون الألمان فى مطلع القرن العشرين، واحتقروا السود بنفس كراهيتهم لليهود، ولكن لم يكن هناك سود فى ألمانيا فى ذلك الوقت. ومن السهل، طبعاً، تركيز الكراهية على الحاضر وليس الغائب، خاصة في ظل ظروف ذلك العصر، عندما لم تكن السياحة والسفريات الجماعية معروفة، لم يغادر معظم الأوروبيين بلدانهم أبداً فى أوقات السلم.

ثالثا، كانت نجاحات التحالف المتذبذب بين المحافظة واللاسامية متناسبة عكسياً مع قوة وقدرات خصوم هذا التحالف. إن خصوم اللاسامية -بصفة مؤثرة وثابتة فى أوروبا هم القوى السياسية الليبرالية والاشتراكية- تاريخياً نفس القوى التى تواصل بطرق مختلفة التقاليد التى ترمز إليها حرب الاستقلال الهولندية (١٥٦٨-١٦٤٨) والثورة الإنجليزية والثورة الفرنسية الكبرى. الثورة الفرنسية هى المقياس فى القارة الأوروبية فمن

يؤيدونها يعادون اللاسامية، ومن يقبلونها بنوع من الأسى يميلون للتحالف مع اللاسامية، ومن يبغضونها ويرغبون بتصفية إنجازاتها هم الأوساط التى تنمو فيها اللاسامية.

رغم ذلك، ينبغى إقامة تمييز حاد بين المحافظين، وحتى الرجعيين من ناحية. والعنصريين واللاساميين من ناحية أخرى. إن العنصرية الحديثة (واللاسامية جزء منها) رغم أنها نجمت عن أوضاع اجتماعية ملموسة، تصبح عندما تستولى على السلطة قوة لا يمكن وصفها، كما أعتقد، إلا بالشيطانية[1]، وبعد الوصول إلى السلطة، وخلالها، أعتقد أنها تستعصى

(١) سأقدم ثلاثة أمثلة اعتباطية للسمة الشيطانية اللاعقلانية التى قد تتخذها العنصرية أحيانا. وقع القسم الأكبر من إبادة يهود أوروبا فى عام ١٩٤٢ وأوائل عام ١٩٤٣، خلال هجوم النازيين على روسيا، الذى وصل ذروته بهزيمتهم فى ستالينغراد. وخلال الأشهر الثمانية من يونيو ١٩٤٢ إلى فبراير ١٩٤٣ ربما يكون النازيون قد استخدموا عدداً أكبر من عربات السكة الحديدية لنقل اليهود إلى غرف الغاز أكثر مما استخدموا عربات هناك لنقل الإمدادات إلى الجيش. وقبل سوقهم إلى الموت، كان معظم أولئك اليهود، فى بولندا على الأقل، يعملون بفعالية كبيرة فى إنتاج المعدات للجيش الألمانى، والمثل الثانى رغم بعده نوعاً ما يأتى من وصف "النواقيس الصقلية" عام ١٢٨٢" كل رجل فرنسى يعثرون عليه يقتلونه. لقد اندفعوا إلى الحانات التى يرتادها الفرنسيون والبيوت التى يقطنونها، ولم يرحموا رجلاً أو امرأة أو طفلاً. وقد اندفع المتظاهرون إلى الأديرة الدومينيكية والفرانسسكانية حيث أخرج جميع الرهبان الأجانب وأجبروا على نطق كلمة سيسيرى، التى يصعب على الفرنسيين نطقها. وكل من فشل بذلك يقتل

S. Runciman, The Sicilian vespers Cambridge up. 1958, p. 215).

والمثل الثالث حديث جداً : فى صيف عام ١٩٨٠- بعد محاولة الاغتيال التى قام بها إرهابيون يهود ونجم عنها فقدان بسام الشكعة رئيس بلدية نابلس لرجليه الاثنتين، وفقدان كريم خلف رئيس بلدية رام الله لإحدى قدميه- تجمعت جماعة من النازيين اليهود فى الحرم الجامعى لجامعة تل أبيب، وقامت بشى بعض القطط وقدمت لحمها للمارة باعتباره «شيش كباب» من أرجل رؤساء البلديات العرب. وأى إنسان شاهد تلك الطقوس المروعة - كما فعلت - سيعترف بأن بعض أنواع الرعب تستعصى على التفسير فى الوضع الحالى للمعرفة.

على التحليل من جانب أى نظرية اجتماعية معروفة فى الوقت الحالى، أو أى مجموعة من الملاحظات الاجتماعية.

الرد الصهيونى

الصهيونية، تاريخياً، ردة فعل على اللاسامية وتحالف محافظ معها. رغم أن الصهاينة، مثل المحافظين الأوروبيين الآخرين، لم يدركوا جيداً مع من كانوا يتحالفون. وحتى صعود اللاسامية الحديثة كانت مشاعر اليهود الأوروبيين متفائلة، وبنوع من الإفراط أيضاً، ولم يتضح هذا الأمر فى العدد الضخم من اليهود، خاصة فى البلدان الغربية، الذين تخلوا عن اليهودية الكلاسيكية، دون أسف يذكر، فى الجيل الأول أو الثانى بعد أن أصبح ذلك ممكناً وحسب، بل ومن خلال تشكيل حركة ثقافية قوية أيضاً، حركة التنوير اليهودى (هاسكلاه) التى بدأت فى ألمانيا والنمسا قرابة العام ١٧٨٠ وانتشرت فى أوروبا الشرقية حوالى ١٨٥٠-١٨٧٠، جاعلة من نفسها قوة اجتماعية ذات تأثير كبير. ولا أستطيع الدخول، هنا، فى نقاش حول الإنجازات الثقافية للحركة، مثل إحياء الأدب العبرى وخلق أدب رائع باليديشية. ولكن من الجدير بالاهتمام ملاحظة أن الحركة، رغم الكثير من التمايزات الداخلية، اتسمت بفكرتين عامتين :

الاقتناع بضرورة القيام بنقد جذرى للمجتمع اليهودى، وبالخصوص الدور الاجتماعى للديانة اليهودية بصيغتها الكلاسيكية، وكان من الطبيعى أن يتم تعريف تلك القوى من خلال معيار وحيد، مدى تأييدها لانعتاق اليهود.

وقد صوّب نمو اللاسامية كحركة شعبية، والتحالفات العديدة للقوى المحافظة معها، ضربة قاسية لحركة التنوير اليهودى. وكان وقع الضربة مدمراً على نحو خاص لأن صعود اللاسامية في الواقع جاء بُعيد انعتاق اليهود فى بعض البلدان الأوروبية، وقبل تحريرهم فى بلدان أخرى. لقد نال يهود الإمبراطورية النمساوية حقوق المساواة الكاملة فقط عام ١٨٦٧.وفى ألمانيا، حررت بعض المقاطعات المستقلة يهودها فى وقت مبكر، بينما لم تفعل مقاطعات أخرى، خاصة بروسيا التى كانت بطيئة ومتحفظة بهذا الشأن، ولم يتم منح الانعتاق النهائى لليهود فى الإمبراطورية الألمانية إلا على يد بسمارك عام ١٨٧١. وفى الامبراطورية العثمانية كان اليهود عرضة للتمييز الرسمى حتى عام ١٩٠٩، وفى روسيا (وكذلك رومانيا) حتى عام ١٩١٧. على هذا الأساس، بدأت اللاسامية الحديثة خلال عقد من انعتاق اليهود فى أوروبا الوسطى، وقبل انعتاق أكبر طائفة يهودية فى ذلك الوقت، فى روسيا القيصرية، بوقت طويل.

لذلك يسهل على الصهاينة تجاهل نصف الحقائق المتصلة بالموضوع، والعودة إلى الموقف الانعزالى لليهودية الكلاسيكية، والادعاء بأن الأغيار يكرهون ويضطهدون اليهود دائماً، لذا فإن الحل الوحيد هو نقلهم جميعاً جسدياً وتجميعهم في فلسطين أو أوغندا، أو أى مكان آخر[1]. وقد سارع

---

(١) إحدى مراوغات جابوتنسكى المبكرة أنه اقترح عام ١٩١٢ إقامة دولتين يهوديتين، واحدة فى فلسطين والثانية فى أنجولا، حيث ستعتمد الأولى الفقيرة فى المصادر الطبيعية على خيرات الثانية.

بعض النقاد اليهود الأوائل للصهيونية للقول إن المرء إذا افترض وجود عدم تلاؤم دائم وغير قابل للتفسير تاريخياً بين اليهود والأغيار. فإن تجميع اليهود فى مكان واحد سيعرضهم لكراهية الأغيار فى ذلك الجزء من العالم (كما حدث فعلا ولكن لأسباب مختلفة تماماً) لكن هذه الحجة المنطقية لم تترك، فى حدود علمى، أدنى أثر يذكر، تماماً مثل الحجج المنطقية والواقعية ضد أسطورة «العرق اليهودى» التى لم تترك أدنى تأثير يذكر لدى اللاساميين.

فى الواقع، كانت هناك دائماً صلات وثيقة بين اللاساميين الصهاينة: بالضبط مثل بعض المحافظين الأوروبيين، فكر الصهيونيون بأنهم يستطيعون تجاهل السمة «الشيطانية» للاسامية واستخدام اللاساميين بما يخدم أهدافهم. والكثير من نماذج تلك التحالفات معروفة جيداً. فقد تحالف هرتسل مع الكونت فون بلهف، السيء الصيت، الوزير اللاسامى فى عهد القيصر نيقولا الثانى[1]، وعقد جابوتنسكى معاهدة مع بيتليورا، الزعيم الأوكرانى الرجعى الذى ذبحت قواته ١٠٠ ألف يهودى فى أعوام ١٩١٨-

(١) ذهب هرتسل إلى روسيا فى أغسطس ١٩٠٣ لمقابلة فون بليهف، وذلك بعد أقل من أربعة أشهر على وقوع مذبحة كيشيف المروعة، التى ذاع بأن المسؤول عنها كان بليهف نفسه. وقد اقترح هرتسل إقامة تحالف يقوم على الرغبة المشتركة بإخراج معظم اليهود من روسيا، وفى المدى القصير إبعاد التأييد اليهودى عن الحركة الاشتراكية. وقد بدأ الوزير العنصرى أول مقابلة (٨ اغسطس) بالقول بأنه يعتبر نفسه «مؤيد متحمس للصهيونية» وعندما استغرق هرتسل فى وصف أهداف الصهيونية، قاطعه بليهف قائلا :
«أنت تحاول إقناع المقتنع فعلاً». عاموس عوز، هرتسل، عام عوفيد، ١٩٧٦ (بالعبرية) ص ٤١٥ - ٤١٩ .

١٩٢١، كما أن تحالفات بن غوريون مع اليمين الفرنسى المتطرف خلال حرب الجزائر تشمل بعض اللاساميين المعروفين، الذين كانوا يحرصون على القول بأنهم ضد اليهود فى فرنسا، وليس فى إسرائيل.

وربما أكثر النماذج إثارة للصدمة ذلك الفرح الذى إبداه بعض القادة الصهاينة فى ألمانيا عند صعود هتلر إلى السلطة، لأنهم كانوا يشاطرونه الاعتقاد بتفوق «العرق» ومعارضة اندماج اليهود بين أبناء «العرق الآرى». وقد أثنوا على هتلر لفوزه على عدوهم المشترك قوى الليبرالية، لقد نشر الدكتور يواقيم برنز، الحاخام اليهودى، الذى هاجر لاحقاً إلى الولايات المتحدة. وصعد فى صفوف المؤتمر اليهودى العالمى ليصبح نائباً للرئيس، كما أصبح قطباً لامعاً فى المنظمة الصهيونية العالمية (وكان لذلك صديقاً حميماً لغولدا مائير)فى عام ١٩٣٤ كتابا خاصا بعنوان WIRJUDEN (نحن اليهود) احتفاء بثورة هتلر الألمانية المزعومة وهزيمة الليبرالية.

«سيتضح ما تعنيه الثورة الألمانية للأمة الألمانية فى النهاية لأولئك الذين صنعوها وصاغوا صورتها. وينبغى عرض ما تعنيه بالنسبة لنا : لقد فقدت الليبرالية حظوظها. الليبرالية تلك الصيغة الوحيدة للحياة السياسية التى ساعدت على اندماج اليهود تتعرض للهزيمة الأن»(١)

إن انتصار النازية يلغى الاندماج والزيجات المختلطة كخيار أمام اليهود «ولا نشعر بالتعاسة نتيجة لذلك» كما يقول الدكتور برنز، الذى يرى فى حقيقة إرغام اليهود على تعريف أنفسهم كيهود «تحقيق رغباتنا».

(١) Dr. Joachim prinz, Wir Juden, Berlin, 1934, P 1501.

ويضيف: «نريد إحلال قانون جديد محل الاندماج: إعلان الانتماء إلى الأمة اليهودية والعرق اليهودى. إن دولة تقوم على مبدأ نقاء الأمة والعرق لجديرة بتقدير واحترام اليهودى الذى يعلن الانتماء لبنى جلدته ويشهر نفسه بهذه الطريقة أن يكون قادراً على حمل ولاء منقوص للدولة. والدولة لا تريد من اليهود إلا إعلان الانتماء لأمتهم الخاصة، ولن ترغب بوجود متحملقين ومتزلفين يهوداً. يجب عليها أن تطلب منا الإيمان بمصالحنا الخاصة والولاء لها، لأن الذى يحترم بنى جلدته وعرقه هو الوحيد القادر على احترام الإرادة القومية للأمم الأخرى»[1].

ويفيض الكتاب بأمثلة مشابهة من التملق الأيديولوجى للنازية، والابتهاج بهزيمة الليبرالية، خاصة أفكار الثورة الفرنسية[2]، ويرجو ازدهار الصهيونية وأسطورة العرق اليهودى أيضاً فى المناخ الملائم لأسطورة العرق الآرى.

لم يدرك الدكتور برنز طبعاً مثل عديد من المتعاطفين الأوائل وحلفاء النازية وجهتها النهائية (وكذلك اللاسامية الحديثة أيضاً) كما لا يدرك عديد من الناس فى الوقت الحاضر إلى أين تتجه الصهيونية- الحركة التى يحتل الدكتور برنز مكانة مرموقة فيها - إنها تتجه نحو مزيج من البغضاء القديمة التى حملتها اليهودية الكلاسيكية لغير اليهود، والتوظيف التعسفى

(١) نفس المصدر، ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(٢) انظر نفس المصدر السابق ص ١٣٦. وقد ظهرت تعبيرات أكثر حماساً فى التعاطف مع النازية من جانب عصابة شتيرن المتطرفة (لا حومى حيروت يسرائيل) حتى أواخر عام ١٩٤١، وهكذا كان الدكتور برنز بالتعبيرات الصهيونية «حمامة».

واللاتاريخى لكل اضطهادات اليهود عبر التاريخ لتبرير الاضطهاد الصهيونى للفلسطينيين.

ورغم أن الفكرة تبدو لا عقلانية ، يتضح من خلال التمحيص الدقيق لدوافع الصهاينة أن أحد أعمق المصادر الأيديولوجية المتأصلة لعداء المؤسسة الصهيونية المتواصل للفلسطينيين إنما يصدر عن حقيقة أن الفلسطينيين يتماثلون، فى أذهان عديد من يهود أوروبا الشرقية، مع فلاحى أوروبا الشرقية المتمردين، الذين شاركوا فى انتفاضة خميلينسكى والانتفاضات المشابهة. كما تجرى مماثلة الفلاحين بطريقة لا تاريخية باللاسامية الحديثة والنازية.

مجابهة الماضى

يجب على جميع اليهود الذين يريدون فعلاً تخليص أنفسهم من طغيان الماضى اليهودي الاستبدادى مجابهة موقفهم الخاص من التعبيرات الشعبية المعادية لليهود فى الماضى، خاصة المقترنة منها بتمردات الفلاحين الأقنان. من ناحية أخرى، يتخذ جميع المدافعين عن الديانة اليهودية والفصل العنصري والشوفينية اليهودية مواقفهم استناداً إلى نفس المسألة سواء بعد وقوعها أو فى النقاشات الجارية الآن، حيث يستخدمون الحقيقة التى لا يتطرق إليها الشك بأن الفلاحين المتمردين ارتكبوا فظاعات مفزعة بحق اليهود (وكذلك بحق مضطهديهم الآخرين) بنفس الطريقة التى يستخدم فيها الإرهاب الفلسطينى لتبرير حرمان الفلسطينيين من العدالة.

إجابتنا الخاصة يجب أن تكون إنسانية وصالحة للتطبيق، من حيث المبدأ، على جميع الحالات المشابهة. وبالنسبة ليهودى يسعى بصدق لتخليص نفسه من الخصوصية اليهودية والعنصرية والسيطرة المميتة للديانة اليهودية فإن إجابة كهذه لن تكون عسيرة المنال.

مهما يكن الأمر، أن ثورات الفلاحين المضطهدين ضد أسيادهم ووكلاء أسيادهم مسألة شائعة فى التاريخ الإنسانى، فقد انتفض الفلاحون الروس بقيادة ستنكا ريازين، بعد جيل واحد من تمرد الفلاحين الأوكرانيين بقيادة خميلنسكى. وانتفضوا مرة أخرى بعد مائة عام بزعامة بوغاتشيف. وفى ألمانيا وقعت حرب الفلاحين عام ١٥٢٥، وفى فرنسا انتفاضة جاكوار فى عامى ١٣٥٧-١٣٥٨ إضافة إلى العديد من الانتفاضات الشعبية، ناهيك عن ثورات العبيد فى مختلف أنحاء العالم. وقد حدثت خلالها (حرصت على إيراد نماذج لم يستهدف خلالها اليهود) مجازر مرعبة، مثلما اقترنت الثورة الفرنسية الكبرى بأعمال إرهابية مفزعة.

ما هو موقف التقدميين الحقيقيين- ومعظم الناس المتعلمين المهذبين فى الوقت الحاضر سواء كانوا روساً أو ألماناً أو فرنسيين- من تلك التمردات؟

هل يدين المؤرخون البريطانيون المحترمون عند معالجة المجازر التى تعرض لها الإنجليز على يد الفلاحين الأيرلنديين، أولئك الفلاحون باعتبارهم «عنصريين معادين للإنجليز»؟

ما هو موقف المؤرخين الفرنسيين التقدميين من ثورة العبيد الكبرى فى سان دومنيغو، حيث ذبح العديد من النساء والأطفال الفرنسيين؟

إن طرح السؤال يعنى الإجابة عليه، لكن طرح هذا السؤال على عديد من «التقدميين» وحتى «الاشتراكيين» اليهود يعنى انتظار إجابة مختلفة تماماً، حيث يجرى تحويل الفلاحين الأرقاء إلى وحش عنصرى رغم استفادة اليهود من عبوديتهم واستغلالهم.

ولعل حقيقة أن من لا يتعلمون من التاريخ محكوم عليهم بإعادته، تنطبق على اليهود الذين يرفضون تصفية الحساب مع الماضى اليهودى : لقد أصبحوا عبيداً له ويقومون بإعادة إنتاجه فى السياسات الإسرائيلية والصهيونية. إن دولة إسرائيل تقوم اليوم، ليس فى الشرق الأوسط وحسب بل خارجه أيضاً، بدور تجاه الفلاحين المضطهدين فى عديد من البلدان لا يختلف عن دور يهود بولندا ما قبل العام ١٧٩٥، أى دور وكيل للمضطهد (بكسر الهاء) المتسلط. ومما له دلالة بهذا الشأن أن دور إسرائيل فى تسليح قوات نظام سوموزا، وحالياً قوات أنظمة جواتيمالا والسلفادور وتشيلى لم يثر أى نقاش واسع النطاق فى إسرائيل، أو بين الطوائف اليهودية «المنظمة» فى الدياسبورا، وحتى السؤال الأضيق مدى حول الجدوى ما إذا كان بيع أسلحة لدكتاتور يذبح المدافعين عن الحرية والفلاحين يخدم اليهود على المدى البعيد نادراً ما يثار. والأكثر دلالة الدور الضخم الذى يقوم به يهود متدينون فى هذه التجارة، والصمت المطبق من جانب الحاخامات (الذين يضجون بالتحريض ضد العرب) ويبدو أن إسرائيل والصهيونية تمثلان عودة لدور اليهودية الكلاسيكية.

يجب أن تكون الاجابة الوحيدة الممكنة على هذا كله، من جانب

اليهود أولاً، هى إجابة جميع المدافعين الصادقين عن الحرية والإنسانية فى كل مكان. إجابة كل الشعوب والفلاسفة الكبار- رغم محدوديتهم أحياناً بحكم محدودية الوضع الانسانى نفسه- علينا مجابهة الماضى اليهودى والجوانب القائمة فى حاضرنا كنتيجة للكذب بشأن الماضى وعبادته. أما الشروط المسبقة لهذا الأمر فهى : أولاً، نزاهة كاملة بشأن الحقائق. وثانياً الإيمان (المؤدى إلى الفعل كلما كان ذلك ممكناً) بالمبادىء الإنسانية الكونية للأخلاق والسياسة.

وقد كتب الحكيم الصينى القديم مينشيوس (القرن الرابع قبل الميلاد) الذى أعجب به فولتير كثيراً :

«منشأ قولى إن جميع الناس عليهم التحلى بإحساس الشفقة: إذا شاهد رجل، فجأة، طفلاً يوشك على السقوط فى بئر، مما لاشك فيه أنه سيشعر بالخطر والشفقة، وذلك ليس سعياً وراء مكافأة والدى الطفل، أو بحثاً عن تقريظ جيرانه، أو خوفاً من وقوع اللوم عليه إذا فشل فى إنقاذ الطفل، لذلك نرى عدم وجود إنسان دون إحساس بالشفقة، أو إحساس بالخجل، أو الكياسة، أو الصواب والخطأ، الإحساس بالشفقة بداية الإنسانية، والإحساس بالخجل بداية الاستقامة، والإحساس بالكياسة بداية الذوق، والإحساس بالصواب والخطأ بداية الحكمة. توجد بداخل كل إنسان هذه البدايات الأربع، تماماً كما يملك أربعة أطراف، وبما أن كل إنسان لديه هذه البدايات الأربع فإن الذى يعجز عن ممارستها يحطم نفسه».

وقد لاحظنا فيما تقدم، وسنعرض باستفاضة أكثر فى الملحق، مدى

ابتعاد المفاهيم، التى سمّت بها الديانة اليهودية فى صيغها التلمودية والكلاسيكية الأذهان والقلوب، عن المبادىء المذكورة.

إن السبيل إلى ثورة حقيقية فى اليهودية- أى جعلها إنسانية والسماح لليهود بفهم ماضيهم، أى إعادة تربية أنفسهم خارج طغيان الديانة اليهودية - يكمن فى ممارسة نقد صارم للديانة اليهودية دون خوف أو انتظار فضل من أحد. يجب علينا الحديث ضد ما ينتمى إلى ما ضينا كما تحدث فولتير ضد الأشياء التى تنتمى إلى ماضيه: أزيلوا الأشياء المشينة.

الملحــق

شرائع تلمودية وحاخامية ضد الأغيار

مارس جميع اليهود تقريباً، كما بينت فى القسم الثانى، الهالاكاه (أى المنظومة التشريعية لليهودية الكلاسيكية) منذ القرن التاسع حتى نهاية القرن الثامن عشر، واستمرت حتى يومنا هذا من خلال اليهودية الأرثذوكسية. تستند الهالاكاه فى المقام الأول إلى التلمود البابلى، لكن صعوبة وتعقيد المناظرات التشريعية الواردة فيه خلقت ضرورة وجود تشريعات مصاغة بطريقة قابلة للفهم. وقد قامت بهذا العمل أجيال متعاقبة من العلماء الحاخاميين. ونالت بعض أعمالهم مرجعية عالية ومازالت تستخدم فى الوقت الحاضر. لذلك سنشير، فى أغلب الأحيان إلى هذه الأعمال (وأشهر التعليقات عليها) بدلاً من الإشارة مباشرة إلى التلمود. ويصح الافتراض هنا أن تلك الأعمال أعادت إنتاج معنى النص التلمودى بإخلاص شديد، كما استندت الإضافات التى وضعها علماء لاحقون إلى ذلك المعنى.

أقدم تلخيص للشريعة التلمودية، ومازال يحظى بأهمية بالغة، هو كتاب «مشناه توراه» الذى وضعه موسى بن ميمون فى أواخر القرن الثانى عشر. وأكثر الكتب نفوذاً واستخداماً على نطاق واسع حتى الآن هو «شولحان عاروخ» الذى وضعه الحاخام يوسف كارو فى أواخر القرن السادس عشر كنسخة شعبية موجزة عن كتابه الضخم «بيت يوسف» الذى كان موجهاً إلى العلماء المتقدمين فى الدراسات التلمودية. وقد نال «شولحان عاروخ» القسط الأكبر من التعليقات، وإضافة إلى تلك التى يرجع تاريخها إلى القرن السابع عشر، يوجد تعليق مهم فى القرن العشرين هو كتاب «ميشناه بيروراه». وأخيراً هناك موسوعة التلمودى- وهى عمل حديث نشر فى إسرائيل بداية من أواخر الخمسينات وحرره أهم العلماء الحاخاميين- وهى خلاصة جيدة لكل الأدب التلمودى.

القتل والإبادة الجماعية

تعتبر الديانة اليهودية قتل اليهودى جريمة كبرى، وواحدة من ثلاث خطايا شنيعة (الوثنية والزنا) وتؤمر المحاكم الدينية اليهودية والسلطات المدنية بإنزال العقوبة، حتى بما يتجاوز الأحكام العادية للعدالة، بحق أى شخص اتهم بقتل يهودى، أما اليهودى الذى يتسبب فى موت يهودى آخر بطريقة غير مباشرة، فإنه مذنب فقط بما تطلق عليه الشريعة التلمودية تسمية خطيئة ضد «شرائع السماء» لذا يقع عقابه على الله لا على الإنسان. ولكن عندما تكون الضحية من غير اليهود يختلف موقف الشريعة

تماماً. اليهودى الذى قتل غير اليهودى مذنب فقط بخطيئة ضد شرائع السمـاء التى لا تعـاقب عليهـا المحكمة[1]، أمـا التسـبب فى مـوت غير اليهودى بطريقة غير مباشرة فلا تعتبر خطيئة أبداً[2].

لذلك يبين أحد أهم اثنين من المعلقين على «شولحان عاروخ» عندما يتعلق الأمر بغير اليهودى «فلا ينبغى أن يرفع الانسان يده لإلحاق الأذى به، ولكن قد يؤذيه بطريقة غير مباشرة، بإزاحة سلم، مثلا، بعد سقوطه فى حفرة عميقة. ولا يـوجـد تحـريم لعمل كهـذا لأنه يتم بطريقة غير مباشرة»[3] ومع ذلك يحظر من ناحية أخرى أى عمل يؤدى بطريقة غير مباشرة إلى وفاة غير اليهودى، إذا كان سينجم عنه انتشـار العداء لليهود[4].

إذا وقـع القـاتـل غير اليهـودى تحت سلطـة التشريعـات القضـائية اليهودية يجب إعدامه سواء أكانت الضحية يهودية أم لا. ولكن إذا لم تكن الضحية يهودية واعتنق القاتل اليهودية فلا يعاقب[5].

لكل ما تقدم صلة مباشرة وعملية بما يجرى فى دولة إسرائيل. ورغم

---

(١) Maimonides, Mishneh Torah, "Laws on Murderer" 2,.II, Talmudic Encyclopedia "Goy".

(٢) الحاخام يوئيل سيركيس «بيت حاداش» تعليق على «بيت يوسف» عيوريه ديعاه ١٥٨. تنطبق القاعدتان المذكورتان حتى لو كان غير اليهودى «جيرتوشاف» أى (أجنبى مقيم) وتعهد أمام ثلاثة شهود يهود باحترام المبادىء التوراتية السبعة، التى تعتبر الشريعة التلمودية بأنها موجهة إلى الأغيار.

(٣) الحاخام ديفيد حالاوى (بولندا القرن السابع عشر) «توريه زاهاف» على «شولحان عاروخ» (عيوريه ديعاه) ١٥٨ .

(٤) مفهوم «العداوة» هذا سيناقش لاحقا .

(٥) دائرة المعارف التلمودية «جير» (معتنق الديانة اليهودية) .

أن القوانين الجنائية للدولة لا تميز بين اليهودى وغير اليهودى، فإن الحاخامات الأرثذوكس يقيمون مثل هذا التمييز، من خلال توجيه أتباعهم للالتزام بالهالاكاه، ومما له أهمية خاصة النصائح التى يسدونها للجنود المتدينين.

وبما أن مبدأ تحريم قتل غير اليهودى ينطبق فقط على «غير اليهود الذين لسنا فى حالة حرب معهم» فقد استخلص العديد من المعلقين الحاخاميين فى الماضى النتيجة المنطقية وهى إمكانية قتل جميع غير اليهود المنتمين إلى شعب عدو، أو حتى ضرورة قتلهم[1]. ويجرى الترويج العلنى لهذه الفكرة منذ عام ١٩٧٢ لتوجيه الجنود الإسرائيليين المتدينين. وأول نصيحة رسمية من هذا النوع جاءت فى كراس نشرته قيادة المنطقة الوسطى فى الجيش الإسرائيلى- التى تقع الضفة الغربية تحت سلطتها- يقول الحاخام المسؤول فى هذا الكراس:

«فى حالة احتكاك قواتنا بمدنيين خلال الحرب، أو خلال مطاردة حامية، أو غارة، إذا لم يتوفر دليل بعدم إلحاقهم الأذى بقواتنا هناك إمكانية لقتلهم. أو حتى ضرورة للقيام بذلك حسب الهالاكاه... بالعدو فى

---

(١) مثلا، الحاخام شبتاى كوهن (منتصف القرن السابع عشر) «سفتى كوهن» على «شولحان عاروخ» عيوريه ديعاه ١٥٨ : «ولكن فى أوقات الحرب جرت العادة على قتلهم بالأيدى، لأنه قيل: أفضل الأغيار اقتلوه» سنتى كوهن وتورى زاهاف (انظر الهامش رقم ٣) العملان الكلاسيكيان من التعليقات والتفاسير «شولحان عاروخ».

زمن الحرب، بل تحضها الهالاكاه على قتل حتى المدنيين الطيبين، أى الذين يتظاهرون بذلك»[1].

ويجرى شرح نفس الفكرة فى الرسائل التالية المتبادلة بين جندى إسرائيلى شاب وحاخامه، وهى منشورة فى الكتاب السنوى لكلية «مدراشيات نوعام» أحد أبرز المعاهد الدينية فى إسرائيل، والتى تعلم فيها العديد من زعماء ونشطاء الحزب القومى الدينى وغوش ايمونيم[2].

رسالة الجندى موشى إلى الحاخام شمعون وايزر

«بعون الله،

إلى صاحب المقام الرفيع، حاخامى العزيز،

---

(١) الحاخام العقيد أ. افيدان (زميل) «توهار هانيشك بينور هاهالاكاه» (طهارة السلاح على ضوء الهالاكاه) فى «بنيكفوت ميلحيمت يوم كيبوريم- بيركى هاغوت. هالاكاه عميم هاكار» (فى أعقاب حرب يوم الغفران- فصول التامل، والهالاكاه والبحث) قيادة المنطقة الوسطى ١٩٧٣ تم ذكره فى «هعولام هازيه»٥ يناير ١٩٧٤، وذكره أيضا ديدفد شاهام «فصل فى التأمل» «حوتام» ٢٨ مارس ١٩٧٤ وكذلك أمنون روبنشتاين «من يزيف الهالاكاه» فى «معاريف» ١٣ اكتوبر١٩٧٥. ويشير روبنشتاين أن الكراس سحب فيما بعد من التداول بأمر من رئيس الأركان، ربما لأنه يشجع الجنود على عصيان أوامره، لكنه يذكر محتجاً أن الحاخام افيدان لم يقدم لمحكمة عسكرية، ولم يعترض أى حاخام عسكرى أو مدنى على ما كتبه.

(٢) الحاخام شمعون وايزر «طهارة السلاح رسائل متبادلة» فى «نيف هامدراشياه» الكتاب السنوى لـ مدراشيات نوعام ١٩٧٤ ص ٢٩-٣٠، الكتاب السنوى بالعبرية والإنجليزية والفرنسية، لكن المواد المذكورة هنا منشورة بالعبرية فقط.

أود فى البداية الأستفسار عن أحوالك وأحوال العائلة، راجيا أن تكونوا جميعا بخير. أنا، بحمد الله، بخير. وأرجو المعذرة لأننى لم أكتب لك منذ فترة طويلة. تخطر ببالى أحيانا أية «متى سأحضر وأظهر أمام الرب»[١] وأرجو، رغم عدم تأكدى من ذلك، أن أتمكن من زيارتك خلال إحدى أجازاتى. هناك ضرورة لذلك.

جرت فى وحدتى مناقشة لفكرة «طهارة السلاح» وما إذا كان من الجائز قتل العربى الأعزل من السلاح، أو النساء والأطفال؟ أو حتى ما إذا كان علينا الانتقام من العرب؟ وقد أجاب كل واحد حسب فهمه الخاص. ولم أستطع التوصل إلى إجابة حاسمة. هل نعامل العرب مثل العماليق، أى نقتلهم حتى نستأصل ذكراهم فى الأرض[٢]، أم نقوم بما يحدث فى الحرب العادلة التى يقتل فيها الإنسان الجنود فقط؟

ثمة مشكلة أخرى، هل أعرض نفسى للخطر فى سبيل إنقاذ امرأة من الموت؟ وقعت حالات ألقت النساء خلالها قنابل يدوية. وهل يجوز لى تقديم الماء لعربى يستسلم؟ فقط يتظاهر بالاستسلام للتغرير بى وقتلى! وهناك حوادث من هذا القبيل.

وفى الختام تحياتى الحارة للحاخام وعائلته»

موشى

---

(١) المزامير ٤٢ ، ٢ .

(٢) «ولتمح ذكرى العماليق من تحت السماء» تثنية ٢٥ ، ١٩. وكذلك شموئيل الأول ١٥، ٣ : «اذهب الآن واضرب العماليق، دمرهم جميعاً، ولا تبق أحداً منهم، بل اذبح الرجل والمرأة، الطفل والرضيع والثور الماعز والجمل والحمار».

رد الحاخام شمعون وايزر

«بعون السماء»

عزيزى موشى، أطيب التحيات.

سأبدأ بكتابة الرسالة هذا المساء رغم إدراكى بأننى لن أفرغ منها الآن بسبب مشاغلى ولأننى أريدها مسهبة للإجابة على أسئلتك. لذلك سأنقل لك بعض أقوال الحكماء، طيب الله ذكراهم، وأفسرها[1].

الحرب لدى غير اليهود ذات قوانين خاصة مثل قوانين اللعب، كرة القدم أو السلة. لكن الحرب كما يقول حكماؤنا، طيب الله ذكراهم، لا تعنى بالنسبة لنا لعبة بل ضرورة حيوية، واستناداً إلى هذه المقاييس فقط ينبغى التفكير حول كيفية القيام بها { ... } ويبدو أننا نتعلم أن اليهودى الذى يقتل غير اليهودى يعتبر قاتلاً، وباستثناء حقيقة عدم وجود محكمة تملك حق عقابه، فإن وطأة الفعل تقع على كاهله مثل أى جريمة قتل أخرى. لكننا نجد لدى نفس المراجع فى مكان آخر {...} أن الحاخام شمعون تعود القول: «أفضل غير اليهودى- اقتلوه-. أفضل الأفاعى- هشموا رأسها».

وقد يقال أن تعبير «اقتلوا» فى قول الحاخام شمعون مجازى فقط لا يؤخذ بحرفيته. لكن المعنى «يضغط» {يؤكد نفسه} أو شىء من هذا القبيل وعلى هذا النحو نتجنب التناقض مع المراجع التى أشرنا إليها. وقد يحاجّ

(١) نعفى القارىء من معظم هذه الإشارات المعقدة والاستشهادات من التلمود والمراجع الحاخامية، والمحذوفات هنا يشار لها {...} لكن خلاصات الحاخام نفسه مذكورة بالكامل.

البعض أن هذا القول، مع أخذه بحرفيته، يعبر فقط عن الرأى الشخصى للحاخام شمعون، الذى تدحضه آراء حكماء آخرين {أشرنا إليها من قبل} لكننا نعثر على التفسير الحقيقى فى «توسافوت»[1] هناك {...} نعرف التعليق التالى على الحكم التلمودى بعدم مساعدة غير اليهود الذين يسقطون فى بئر للخروج منها، مع عدم دفعهم إليها أو قتلهم. وهذا يعنى عدم إنقاذهم من الموت أو قتلهم بطريقة مباشرة. فى «توسافوت» ما يلى : «إذا كان ثمة شك {لأنه} قيل فى موضع آخر أفضل غير اليهود- اقتلوه. عندئذ فالإجابة أن هذا القول يعنى زمن الحرب» وكما ذكر معلقو «توسافوت» يجب التمييز بين زمن الحرب والسلم، لذا إذا كان من غير الجائز قتل غير اليهود فى زمن السلم، فإن قتلهم فى زمن الحرب يعتبر ميتسفاه {الواجب الدينى} وهذا هو الفرق بين اليهودى وغير اليهودى : رغم أن القاعدة العامة «من يأتى لقتلك اقتله أولاً» تنطبق على اليهودى أيضاً، كما جاء فى رسالة السنهدرين {فى التلمود} صفحة ٩٧٢، فإنها تنطبق عليه فقط إذا كان هناك مبرر {فعلى} للخوف بأنه جاء لقتلك، ولكن ينبغى الافتراض، عادة، أن غير اليهودى يأتى لقتلك فى زمن الحرب، ما لم يتضح بأنه لا يبطن نوايا شريرة، هذه هى قاعدة «طهارة السلاح» حسب الهالاكاه، وليس حسب المفهوم الأجنبى المقبول حالياً فى الجيش الإسرائيلى، والذى تسبب بوقوع العديد من الخسائر {اليهودية}.

أرفق لك، أيضاً، قصاصة اقتطعتها من الجريدة وفيها الخطاب الذى

---

(١) التوسافوت (حرفيا تعنى الملحقات) نوع من الكتابة حول التلمود يرجع تاريخها إلى القرن الحادى عشر والثالث عشر.

ألقاه الأسبوع الماضى فى الكنيست الحاخام كالمان كاهانا، حيث يبيّن بأسلوب بالغ الحيوية والإلم كيف تسببت «طهارة السلاح» (حسب المفهوم الأجنبى) بوقوع ضحايا.

فى الختام أرجو ألا أكون قد أثقلت عليك بسبب طول الرسالة. هذا الموضوع جدير بالنقاش حتى لو لم تكتب لى بشأنه، وقد اضطرتنى رسالتك لتناول المسألة برمتها.

عليك السلام أنت وجميع اليهود، وأرجو أن نلتقى فى القريب العاجل كما ذكرت»

شمعون.

رد موشى إلى الحاخام شمعون وايزر

«صاحب المقام الرفيع،

حاخامى العزيز،

فى البداية أرجو أن تكون أنت والعائلة بخير وعافية. تلقيت رسالتك المطولة،وأشكرك بالغ الشكر نظراً للعناية الشخصية التى أحطتنى بها، لأننى أعتقد أنك تكتب للكثيرين وتكرس معظم وقتك للدراسة حسب برنامجك الخاص، أما الرسالة قد فهمتها على النحو التالى :لا يسمح لى فى زمن الحرب بقتل كل عربى أو امرأة أصادفهما وحسب، بل من واجبى أيضا القيام بذلك، إذا كان ثمة ما يدعو للشك بأنهم يساعدون فى الحرب ضدنا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. وإذا تحدثت عن نفسى فإن من واجبى قتلهم حتى إذا نجم عن ذلك مشكلة مع القانون العسكرى. وأعتقد أن فكرة «طهارة السلاح» هذه يجب تعميمها على المعاهد التعليمية، الدينية منها على الأقل، كى يكوّن الناس رأياً بهذا الصدد ولا يضلوا فى متاهة

«المنطق» خاصة حول موضوع كهذا. وينبغى شرح هذه الفكرة والطريقة التى تمارس بها.

يؤسفنى القول بأننى رأيت أشكالاً مختلفة من «المنطق» هذا حتى بين زملاء متدينين، لذا أرجو أن تنشط فى هذا الموضوع كى يعرف جنودنا موقف أسلافهم بوضوح كامل.

وفى النهاية أختتم رسالتى على أمل الحضور إلى الييشيفا (المدرسة الدينية) بعد انتهاء دورتى التدريبية فى غضون شهر، تحياتى».

موشـــى

لا تتناقض نظرة الهالاكاه هذه، مبدئيا، مع القانون الجنائى الإسرائيلى وحسب. كما وردت تلميحات فى الرسائل المقتطفة أعلاه. بل ومع أنظمة الجيش الرسمية أيضاً، رغم ذلك لا يخامرنا الشك بأنها تؤثر على تطبيق العدالة خاصة من جانب السلطات العسكرية. ففى جميع الحالات التى قتل فيها يهود من الجيش، أو منظمات شبه عسكرية، عرباً غير محاربين، وبينها حالات قتل جماعية مثل كفر قاسم ١٩٥٦، أطلق سراح القتلة أو تعرضوا لأحكام بالغة الرأفة، وحكم عليهم بأحكام غالباً ما يفرج عنهم قبل نفادها مما يجعل تلك الأحكام وكأنها لم تصدر أصلاً(١).

---

(١) يسمح للمذنبين بجرائم من هذا النوع بالصعود حتى إلى المراكز العامة الرفيعة. وكمثل لذلك شموئيل لاهيس المسؤول عن قتل ما بين ٥٠ ، ٧٠ من الفلاحين العرب المسجونين فى أحد المساجد بعدما احتل الجيش الإسرائيلى قريتهم خلال حرب ١٩٤٨-١٩٤٩. فقد منح العفو التام بعد محاكمة شكلية بسبب تدخل بن غوريون. وأصبح فيما بعد محامياً مرموقاً وفى أواخر السبعينيات اختير مديراً عاما للوكالة اليهودية (أى الفرع الإسرائيلى للحركة الصهيونية) وفى أوائل عام ١٩٧٨ نوقشت الحقائق المتعلقة بماضيه فى الصحافة الإسرائيلية، ولم يعترض أى حاخام أو عالم حاخامى على العفو الصادر بحقه، أو مدى ملاءمته لمنصبه الجديد، ولم يتم التراجع عن تعيينه.

إنقاذ حياة الإنسان

لهـذه الفكرة- القيمة العليـا للحيـاة الإنسـانية والتزام الإنسان ببذل أقصى جهد ممكن لإنقاذ حياة أخيه الإنسان- أهمية ظاهرة للعيان. وهى مدار عناية خاصة بالنسبة للأوضاع اليهودية، نظراً لأن الرأى العام اليهودى منذ الحرب العالمية الثانية قد أدان- بطريقة عادلة أحياناً وغير عادلة فى أحيان أخرى- «العالم كله» أو على الأقل أوروبا لأنها لم تحرك ساكناً بينما كان اليهود يتعرضون للذبح. لذلك دعنا ننظر فيما تقوله الهالاكاه بهذا الشأن.

تضع الهالاكاه واجب إنقاذ اليهودى لحياة أخيه اليهودى فوق أى واجب آخر[١]، حتى لا يجاريه فى الأهمية سوى تحريم الكبائر الثلاث : الزنا (بما فى ذلك زنا المحارم) والقتل والوثنية، أما بالنسبة لغير اليهود فإن المبدأ التلمودى الأساسى ينص على عدم إنقاذهم، رغم تحريم قتلهم صراحة. ويعبر التلمود[٢] نفسه عن هذا المبدأ على النحو التالى: «لا يجب إخراج غير اليهود من بئر أو دفعهم {فى البئر}» ويفسر موسى بن ميمون[٣]هذا الأمر «يجب ألا نتسبب بقتل غير اليهود الذين لسنا فى حالة حرب معهم، ولكن يحظر إنقاذ حياتهم إذا كانوا على مشارف الموت. إذا

(١) شولحان عاروخ، «هوشين مشبات» ٤٢٦

(٢) Tractate "Avoda Zarah" P 26b.

(٣) ابن ميمون، مصدر سبق ذكره «حكم القاتل» ٤، ١١.

شوهد أحدهم يسقط فى البحر، مثلاً، فلا يجب إنقاذه، لأن الشريعة تقول لا تهمل دم أخيك وغير اليهودى ليس أخاً»[1] كما يحظر على الطبيب اليهودى، خصوصاً، معالجة غير اليهودى. وابن ميمون نفسه، وهو طبيب بارز، صريح بهذا الصدد، ففى موضع آخر[2] يعيد التمييز بين «أخيك» وغير اليهودى ويختتم بالقول «ومن هنا نعلم أن علاج غير اليهودى حرام حتى لو كان مقابل أجر» لكن رفض اليهودى، أو بالأحرى الطبيب اليهودى، إنقاذ حياة أحد الأغيار (غير اليهود) قد يثير عداء أصحاب النفوذ منهم ضد اليهود، إذا شاع هذا الأمر وانتشر بين الناس، مما يعرض اليهود للخطر، ومع احتمال وجود خطر كهذا فإن واجب تفاديه يتجاوز حظر مد يد العون لغير اليهود. لذلك يضيف ابن ميمون «ولكن إذا كنت تخشاه أو تخشى عداوته فعالجه بأجر ويحرم عليك القيام بذلك دون أجر». وقد كان ابن ميمون نفسه، فى الواقع، الطبيب الخاص لصلاح الدين، ويبدو إصراره على العلاج بأجر – ربما لتثبيت فكرة أن العلاج ليس نوعاً من الإحسان بل واجب لا يمكن تفاديه- ليس قاطعاً، ينصح فى فقرة أخرى بعلاج غير اليهودى الذى تُخشى عداوته «حتى بالمجان إذا لم يكن ثمة حل آخر».

يتكرر نفس المبدأ- حظر إنقاذ حياة غير اليهودى أو علاجه وتعليق الخطر فى الحالات التى يخشى فيها من أثارة العداء- (حرفياً تقريباً) من جانب مراجع أخرى، بما فى ذلك الكتاب المنشور فى القرن الرابع عشر «أربع

(١) سفر اللاويين ١٩، ١٦. بالنسبة لطريقة ترجمة تعبير «Thy Fellow» انظر الهامش ٢ ص ٥٠ فى القسم الثانى.

(٢) ابن ميمون، مصدر سبق ذكره «الزنا» ١٠، ٢- ١.

توريم» وكتاب كارو «بيت يوسف» و «شولحان عاروخ»[1] ويضيف «بيت يوسف» مستشهداً بابن ميمون «ومن المسموح تجريب عقار على وثنى إذا كان ذلك يخدم غرضاً معيناً» كما تتكرر نفس الفكرة أيضاً لدى الحاخام الشهير موسى أسيرليس.

وتجمع كافة المراجع الهالاكية على أن تعبير «الأغيار» فى المبدأ المذكور أعلاه يشير إلى جميع غير اليهود. ثمة صوت متفرد وحيد، هو الحاخام موسى ريفكس، صاحب تعليق ضئيل الأهمية على «شولحان عاروخ» الذى يقول[2] «ذكر حكماؤنا ذلك فقط بشأن الوثنيين الذين كانوا فى أزمانهم يعبدون الأصنام، ولم يؤمنوا بخروج اليهود من مصر أو بخلق العالم من العدم. لكن الأغيار الذين نعيش، نحن شعب إسرائيل {فى كنفهم} فى المنفى، والذين ننتشر بينهم يؤمنون بخلق العالم من العدم وبالخروج، وبالكثير من مبادىء دياناتنا ويصلّون لخالق السماوات والأرض، ولا يوجد اعتراض على مساعدتهم، بل من واجبنا أيضا الصلاة من أجل أمنهم».

هذا المقطع الذى يرجع تاريخه إلى النصف الثانى من القرن السابع عشر مفضل لدى العلماء المدافعين عن اليهودية[3]، لكنه من ناحية عملية

---

(١) فى الحالتين المذكورتين فى المدخل «يوريه ديعاه» ١٥٨، يكرر «شولحان عاروخ» نفس النظرة فى «هوشين مشبات» ٤٢٥.

(٢) موسى ريفكيس تعليق «بئير هاغولاه» على «شولحان عاروخ» «هوشين مشبات» ٤٢٥.

(٣) هكذا يستشهد الدكتور جاكوب كاتز، فى كتابه الصادر بالعبرية «بين اليهود والأغيار» وكذلك نسخته الأكثر اعتذارية الصادرة بالإنجليزية بعنوان «الحصرية والتسامح» بهذا المقطع حرفياً ويستخلص هذه النتيجة المذهلة «بالنسبة لواجب إنقاذ حياة الإنسان لا ينبغى إقامة تمييز بين اليهود والمسيحيين» ولا يستشهد بأى من الآراء ذات المرجعية التى ذكرتها أعلاه، أو فى القسم التالى.

ليس كما يتظاهر المدافعون عنه، إذ يدعو لإلغاء الحظر على إنقاذ حياة غير اليهودى بدلاً من الحض على ذلك لجعله إجبارياً كما هو الحال بالنسبة لإنقاذ حياة اليهودى، وحتى هذا القدر من التسامح ينطبق فقط على المسيحيين والمسلمين وليس على غالبية البشر. ولعل وجوده يدل على قيام محاولات لجعل عقيدة الهالاكاه القاسية أكثر تسامحاً، لكن غالبية علماء الهالاكاه، اللاحقين لم يمدوا من نطاق رأفة ريفكس لتشمل جماعات إنسانية أخرى، بل رفضوها رفضاً باتاً.

انتهاك السبت لإنقاذ حياة انسان

يتحول انتهاك حرمة السبت- أى القيام بعمل يحظر القيام به يوم السبت- إلى واجب عندما تنشأ حاجة لإنقاذ حياة يهودى، لكن مشكلة إنقاذ حياة غير اليهودى يوم السبت لم تطرح كموضوع رئيسى فى التلمود، لأنها محظورة، بأى حال من الأحوال، حتى فى أيام الأسبوع الأخرى. ومع ذلك تستخدم هذه المسألة فى النقاش كعامل تعقيد إضافى من خلال نموذجين :

أولاً، فلنقل أن هناك جماعة من الناس يتعرضون للخطر، ويحتمل (ليس ثمة تأكيد) وجود يهودى واحد على الأقل بينهم، فهل يُنتهك السبت لإنقاذهم؟

توجد بهذا الشأن مجادلات مطولة. واستناداً إلى المراجع الأولى بما فيها ابن ميمون والتلمود نفسه، يحكم «شولحان عاروخ»[1] على هذه

(١) ابن ميمون، مصدر سبق ذكره «السبت» ٢٠٢٢ - ٢١، شولحان عاروخ «اوراه حاييم» ٣٢٩.

المسألة بمقدار عدد الاحتمالات: إذا افترضنا، على سبيل المثال، أن تسعة من غير اليهود يعيشون في بيت مع يهودي واحد، وينهار البيت ذات سبت بينما يكون أحد القاطنين (لا تعرف هويته) في الخارج، ويبقى تسعة أشخاص تحت الأنقاض. هل نرفع الأنقاض بما يعنيه ذلك من انتهاك للسبت مع وجود احتمال ألا يكون اليهودي تحت الأنقاض (ربما يكون الغائب)؟

بهذا الصدد يقول «شولحان عاروخ» بضرورة انتهاك حرمة السبت لأن احتمالات وجود اليهودي تحت الأنقاض (تسعة إلى واحد) ومن ناحية أخرى، إذا افترضنا أن تسعة أشخاص كانوا خارج البيت وبقى العاشر فقط تحت الأنقاض (ولا يعرف من هو) فلا ضرورة لرفع الأنقاض لأن الاحتمالات هنا كثيرة (تسعة إلى واحد) ضد أن يكون اليهودي هو الشخص المحاصر تحت الأنقاض.

هناك مثل آخر مشابه :

«إذا تعرض قارب يقل بعض اليهود للخطر في البحر فمن واجب الجميع انتهاك حرمة السبت لإنقاذهم»

رغم ذلك يقول الحاخام الكبير عكيفا ايغر (توفى ١٨٣٧) فى تعليقه: «إذا كان من المعروف وجود يهود على ظهر القارب. ولكن إذا لم تتوفر معلومات حول هوية الأشخاص، يجب عدم انتهاك حرمة السبت، لأن الإنسان يتحرك استناداً إلى حجم الاحتمالات، وغالبية الناس فى العالم من غير اليهود»[١] لذلك، بما أن احتمالات وجود يهود بين الركاب ضئيلة جداً يُتركون لمجابهة مصير الغرق.

---

(١) الحاخام عكيفا أيغر، تعليق على شولحان عاروخ، نفس المصدر السابق، ويضيف أيضاً إذا عثر على طفل متروك فى مدينة تسكنها أغلبية من غير اليهود يجب استشارة حاخام فيما إذا كان من الواجب إنقاذه.

إضـافة لـذلك، يتقلص شـرط إنقـاذ غير اليهـودى تفـادياً للخطر أو العداوة يوم السبت. فاليهودى المدعو لمساعدة أحد الأغيار (غير اليهود) خلال أيـام الاسبوع الأخـرى قـد يجد نفسـه مـرغماً على القيـام بذلك، لأن اعترافـه بعـدم إمكانيـة إنقـاذ حيـاة غير اليهـودى، مـن حيث المبدأ، يجلب العـداوة، بينمـا يستطيع التـذرع بـاحترام حـرمـة السبت كعذر مقبول. وفى التلمود حالة نموذجية[1] دارت بشأنها مجادلات مسهبة، وهى تتعلق بقابلة يهودية تدعى لمساعدة امرأة غير يهودية على الوضع. خلاصة القول : يسمح للقابلة بمد يد العون خلال بقية أيام الأسبوع خوفاً من إثارة العداوة «ولكن عليها الامتناع عن المساعدة يوم السبت حيث تستطيع التذرع بالقول «يجوز انتهـاك حـرمـة السبت فى سبيـل اليهـود فقط، الـذين يحترمـونه. وأنتم لا تتقيدون بالسبت لذا يحظر علينا انتهاكه من أجلكم»

ولكن هل هذا تفسير حقيقى أم مجرد مبرر للاعتذار؟

يعتقد ابن ميمون بوضوح أنه مجرد مبرر فقط، ويمكن استخدامه حتى لـو كانت حـالـة القـابلة المدعـوة للمسـاعـدة لا تشمـل، فعلياً، أى انتهاك للسبت، ويفتـرض بمثـل هـذا التبرير أن ينخـدع غير اليهـود لأنهـم يجهلـون عمـومـاً نـوعية الأعمـال التى يحظـر على اليهـود القيـام بهـا يـوم السبت. ويقـول: «يجب عـدم مسـاعدة المرأة غير اليهـودية على الوضع يوم السبت، حتى مقابل أجر، ويجب ألا يخشى الإنسان {اليهودى} العداوة، حتى لو لم

(١) Tractate "Avodah Zarah" O 26.

تشمل هذه المساعدة أى انتهاك للسبت» وينص «شولحان عاروخ» على نفس الأمر[1].

رغم ذلك، لا يمكن الركون دائماً إلى مثل هذا المبرر لخداع غير اليهود وتفادى عداوتهم. لهذا السبب اضطرت بعض المراجع الحاخامية لتخفيفه نوعاً ما وأجازت للأطباء اليهود علاج الأغيار يوم السبت، حتى لو تضمن ذلك القيام بأنواع معينة من العمل المحظور عادة فى ذلك اليوم. وينطبق هذا التخفيف الجزئى على مرضى الأغيار الأغنياء واصحاب النفوذ، الذين لا يمكن خداعهم بسهولة وتشكل عداوتم خطراً على اليهود.

على هذا الأساس، يقرر الحاخام يوئيل سركيس، مؤلف «بيت حداش» وأحد أهم الحاخامات فى زمنه (بولندا، القرن السابع عشر) «علاج العمد وصغار النبلاء والأرستقراطيين يوم السبت خوفاً من إثارة عداوتهم التى تحمل نوعاً من الخطر»، ولكن فى حالات أخرى، خاصة عندما يسهل خداع غير اليهودى بالمراوغة فإن الطبيب اليهودى «يرتكب خطيئة لا تغتفر» إذا عالجه يوم السبت. وفى وقت لاحق من نفس القرن صدر حكم مشابه فى مدينة متيز الفرنسية التى كان يربط بين شطريها جسر عائم. ولا

(١) ابن ميمون، مصدر سبق ذكره «السبت» ٢، ١٢، شولحان عاروخ «اوراه حاييم» ٢٣٠. يستخدم النص الثانى : و «ثنى» بدلا من «غيرى» لكن بعض التعليقات مثل «تورى زاهاف» تؤكد أن هذه القاعدة تنطبق حتى على «الإسماعيليين» أى المسلمين «وهم ليسوا وثنيين» ولا يذكر المسيحيون صراحة فى هذا السياق، لكن القاعدة تنطبق بالضرورة عليهم لأن الإسلام. كما سنرى. يعامل بطريقة أفضل من المسيحية. انظر أيضاً «فتوى» حاتام سوفير المذكورة ادناه.

يسمح لليهود عادة باجتياز مثل هذا الجسر يوم السبت، لكن حاخام المدينة أجاز للطبيب اليهودى القيام بذلك «إذا استدعاه الحاكم الكبير» لأن الأخير على علم بأن الطبيب اليهودى يعبر الجسر من أجل مرضاه من اليهود، ولذا قد تستثار عداوته إذا رفض الطبيب القيام بذلك من أجله. وفى عهد لويس الاستبدادى احتلت مسألة نيل رضا ولاته فى المقاطعات مكانة بارزة، أما مشاعر الأغيار (غير اليهود) الأدنى مرتبة من الولاة فلم يعتد بها[1].

ويذكر كتاب «هو خمات شنومو» أحد تفاسير «شولحان عاروخ» ويرجع تاريخه إلى القرن التاسع عشر شرحاً مشابهاً شديد الحزم لمفهوم

(1) هذان المثلان من بولندا وفرنسا، يذكرهما الحاخام ا. ز. كاهانا (فيما بعد أستاذ التلمود فى جامعة بار إيلان الدينية فى إسرائيل) «الطب فى الأدب الهالاكى ما بعد التلمودى» سيناى المجلد ٢٧ (١٩٥٠)، ص ٢٢١. ويذكر أيضاً الحالة التالية من إيطاليا القرن التاسع عشر. حتى عام ١٨٤٨ حظر قانون خاص فى المقاطعات البابوية الأطباء اليهود من تطبيب غير اليهود. ألغت الجمهورية الرومانية المقامة عام ١٨٤٨هذا القانون إضافة إلى القوانين التمييزية الأخرى ضد اليهود، ولكن فى سنة ١٨٤٩ هزمت حملة عسكرية أرسلها رئيس فرنسا لويس نابليون (فيما بعد الإمبراطور نابليون الثالث) الجمهورية وأعادت البابا بيوس، الذى أعاد إحياء القوانين المعادية لليهود عام ١٨٥٠. وقد تجاهل قادة الحامية الفرنسية نتيجة امتعاضهم القانون البابوى، واستخدموا بعض الأطباء اليهود لعلاج جنودهم. كبير حاخامات روما، موشى حازان، الذى كان طبيباً أيضاً، أجاب على سؤال حول إمكانية أن يعمل أحد تلاميذه الأطباء فى المستشفى العسكرى الفرنسى رغم خطر انتهاك حرمة السبت، بأن شروط الوظيفة إذا تطلبت صراحة العمل يوم السبت فعلى التلميذ الرفض، وإذا لم تتطلب فيمكنه القيام بذلك العمل واستخدام «المهارة العظيمة لليهود الذين يخشون الله». ويمكنه، مثلا، أن يعيد يوم السبت الوصفة التى أعطاها يوم الجمعة وذلك عن طريق إخبار الصيدلى بذلك. مقالة الحاخام كاهانا الصريحة التى تتضمن العديد من الأمثلة مذكورة فى بيبلوغرافيا كتاب لكبير حاخامات بريطانيا فى الوقت الحاضر، الحاخام عمانويل جاكوبوفيتش «الأخلاق الطبية اليهودية» بلوك، نيويورك ١٩٦٢، ولكن لا يوجد فى الكتاب نفسه أى ذكر لهذه المسألة.

«العداوة» بالنسبة للقرائيين (طائفة يهودية صغيرة مهرطقة) وحسب هذا الشرح لا يجوز إنقاذ حياتهم إذا تضمن ذلك انتهاكاً للسبت لأن «العداوة» تعنى «الوثنيين فقط، الذين هم أكثر عدداً منا ونحن تحت رحمتهم بينما طائفة القرائيين صغيرة ولسنا تحت رحمتها، لذا فإن مفهوم العداوة لا ينطبق عليها»[١]، ومازال الحظر الحازم على إنقاذ حياة أحد القرائيين يوم السبت سارى المفعول حتى يومنا هنا، كما سنرى.

نوقش الموضوع من كافة جوانبه فى «فتوى» للحاخام موشى سوفير- المعروف أكثر باسم حاتام سوفير- حاخام برسبرغ الشهير (براتسلافيا) المتوفى سنة ١٨٣٢، ولعل تلك المناقشة تثير أكثر من مجرد الاهتمام التاريخى، لأن إحدى «فتاوى» سوفير نالت تأييداً علنياً عام ١٩٦٦ من جانب كبير الحاخامات فى إسرائيل وقتئذ باعتبارها «أحد القوانين الأساسية للهالاكاه»[٢].

المسألة التى طرحها حاتام سوفير هى الوضع فى تركيا، عندما تقرر خلال نشوب الاضطرابات هناك وجود قابلة تحت الطلب فى كل بلدة أو قرية على استعداد لمد يد العون لأى امرأة يأتيها المخاض. كانت بعض القابلات يهوديات، فهل يجوز لهن تأجير أنفسهن لمساعدة امرأة غير يهودية فى أيام

---

(١) «هرخمات شلومو» (تعليق على) «شولحان عاروخ». «اوراه حاييم» ٣٣٠ - ٢.

(٢) الحاخام انترمان، هارتس ٤ أبريل ١٩٦٦. والتفسير الوحيد الذى يعطيه- بعد التعرض لضغط شديد- فى أوقاتنا هذه فإن رفض تقديم مساعدة طبية لغير اليهودى قد يسبب العداوة ويعرض حياة اليهود للخطر.

الموضوع الرئيسى فى المناقشة كلها يتمثل فى الذريعة التى ينبغى التذرع بها، وليس عيادة المريض أو الاهتمام بصحته. كما تؤخذ مسألة تضليل غير اليهود كمسألة بديهية، بدلاً من علاجهم، طالما يؤدى ذلك إلى تفادى إثارة العداء. وقد استشهد حاخام بريطانى بهذه «الفتوى» للقول بأنها سارية المفعول على اليهود حتى الوقت الحاضر(١).

إن معظم الأطباء اليهود فى الأزمنة الحديثة من غير المتدينين، وليسوا على علم حتى بالقواعد سالفة الذكر، علاوة على ذلك يبدو أن العديد من المتدينيين يفضلون- وهذا يحسب لهم- الالتزام بقسم «أبيقراط» بدلاً من الالتزام بمفاهيم حاخاماتهم المتعصبين(٢). رغم ذلك لا تخفق إرشادات الحاخامات فى اكتساب بعض التأثير على بعض الأطباء. ولا شك أن العديد لا يلتزمون بتلك الإرشادات، إلا أنهم يفضلون عدم الاحتجاج ضدها علانية.

---

(١) R.B. Knobelovitz "The Jewish Reveiw" (مجلة حزب مزراص فى بريطانيا) ٨ يونيو ١٩٦٦.

(٢) الحاخام يسرائيل مئير كاغان، المشهور باسم «حافيتز حاييم» يحتج فى «مشناه بروراه» المكتوب فى بولندا عام ١٩٠٧: «وهل تعلم أن معظم الأطباء، حتى الأكثر تديناً لا يراعون هذا القانون، لأنهم يعملون يوم السبت ويسافرون عدة فراسخ لمعالجة وثنى، ويطحنون الأدوية بأيديهم. ولا يوجد لديهم أى تفويض للقيام بذلك. ورغم أننا قد نتسامح بهذا الصدد، خوفا من إثارة أعداء الأغيار بانتهاك بعض الحظر الذى فرضه الحكماء- وحتى هذا الأمر ليس واضحاً تماماً- إلا أن الحظر الذى فرضته التوارة يمنع أى يهودى من انتهاكه، وأولئك الذين ينتهكونه ينتهكون السبت كلياً، فليرأف بهم الله بسبب هذا التدنيس» (تعليق على «شولحان عاروخ»، «أوراه حاييم» ٢٣٠) ويعتبر الكاتب عموما أعظم سلطة حاخامية فى زمنه.

لا يمكن النظر إلى هذا الموضوع كشىء قديم مهجور، إن أحدث المواقف الهالاكية بهذا الصدد محتواة فى كتاب موجز صغير بالإنجليزية بعنوان «الشريعة الطبية اليهودية»(١) ويستند هذا الكتاب الذى نشرته المؤسسة الإسرائيلية المرموقة «موساد حاراف كوك» إلى «فتوى» الحاخام اليعازر يهودا والدينبرغ كبير قضاة محكمة الناحية القضائية فى القدس. ولعل بعض فقراته تستحق عناية خاصة. أولاً، «يحظر انتهاك السبت من أجل أحد القرائيين»(٢) يعلن هذا الموقف بفظاظة وإطلاقية كاملة ودون مبررات إضافية، إذ يفترض أن عداوة هذه الطائفة الصغيرة بلا أهمية لذا يترك أفرادها لمصير الموت بدلاً من تطبيبهم يوم السبت(٣).

أما بالنسبة للأغيار: «حسب المبادىء المنصوص عليها فى التلمود ومفاهيم الشريعة اليهودية يحظر انتهاك السبت- الشريعة التوراتية أو الحاخامية- لإنقاذ حياة مريض غير يهودى فى حالة بالغة الخطر، ويحظر توليد المرأة غير اليهودية يوم السبت».

ولكن ثمة «تخريج» بهذا الشأن «رغم ذلك يُسمح فى الوقت الحاضر بانتهاك السبت والقيام بأعمال تحظرها الشريعة الحاخامية، من أجل أحد

(١) Avraham Steinberg MD (ed.), Jewish Medical law, compiled From Tzitz Eli"ezer (Responsa of R. Eli'ezer Yehuda Waldenberg) Translated by David B. Simons MD, Gefen and Mossad Harav Kook, Jerusalem and California, 1980.

(٢) مصدر سبق ذكره، ص ٣٩.

(٣) نفس المصدر السابق ص ٤١.

لحمه مثل لحم الحمير ونطفته كنطفة الخيل»[1] ولا فرق سواء كانت المرأة غير اليهودية متزوجة أم لا، حيث يعتقد اليهود أن مفهوم الزواج نفسه لا ينطبق على الأغيار («ليس ثمة زواج للوثنيين») لذلك لا ينطبق مفهوم الزنا على ممارسة الجنس بين يهودى وامرأة غير يهودية، بل يساوى التلمود[2] هذه الممارسة بخطيئة الانغماس فى الشهوات البهيمية (لنفس السبب يُنظر إلى غير اليهود عموما باعتبارهم بلا نسب معروف) وقد جاء في دائرة المعارف التلمودية «من يقيم علاقة جنسية مع زوجة غير اليهودى لا يتعرض لعقوبة الموت لأنه مكتوب «زوجة أخيك»[3] لا «زوجة الغريب»[4] وحتى مفهوم أن «يلتصق الرجل بامرأة»[5] لا ينطبق على غير اليهود لعدم شرعية زواج الوثنيين. ورغم أن المرأة غير اليهودية المتزوجة محرمة على غير اليهود إلا أن اليهودى معفى من هذا الأمر، ذلك لا يعنى أن الممارسة الجنسية بين اليهودى وغير اليهودية مسموحة، بل العكس صحيح، لكن العقوبة الرئيسية تقع على عاتق المرأة، التى يجب إعدامها، حتي إذا كان اليهودى قد اغتصبها «إذا ضاجع اليهودى امرأة غير يهودية سواء كانت ابنة ثلاث سنين أو امرأة بالغة، سواء كانت متزوجة أم عزباء، وحتى لو كان قاصراً لا

---

(١) حزقيل، ٢٣، ٢٠.

(٢) Tractate Berakhot - P 78 a.

(٣) دائرة المعارف التلمودية، ايشيت ايش (المرأة المتزوجة).

(٤) سفر الخروج، ٢٠ ، ١٧.

(٥) سفر التكوين، ٢ ، ٢٤.

يبلغ إلا تسع سنوات ويوم واحد- لأنه ضاجعها بإرادته- يجب قتلها كما هى الحال بالنسبة للبهيمة، لأن اليهودى يتعرض للمشاكل بسببها »[1].

ومع ذلك، ينبغى جلد اليهودى، وإذا كان «كوهين» أى من سلالة الكهنة، يتلقى عقاباً مضاعفاً من ضربات السياط، لأنه ارتكب جريمة مزدوجة: لا يجوز لـ «كوهين» مضاجعة العاهرة، ومن المفترض أن جميع غير اليهوديات عاهرات[2].

المكانة الاجتماعية

حسب الهالاكاه، يجب ألا يسمح اليهود (إذا كان باستطاعتهم) لغير اليهودى بتنسم أى منصب يمارس منه سلطة مهما كانت ضئيلة على اليهود (أبرز الأمثلة السجالية هى «قائد لما يزيد على عشرة جنود فى الجيش

(١) ابن ميمون، مصدر سبق ذكره «محظورات فى الممارسة الجنسية» ١٢، ١٠، دائرة المعارف التلمودية «غوى» (الغيرى أو غير اليهود).

(٢) ابن ميمون، مصدر سبق ذكره، نفس المصدر السابق، ٢، ١١-٢، فى الواقع كل امرأة غير يهودية تعتبر «نشغز» الحروف العبرية الأولى من كلمات نيداه، شيفحاه، غوياه، زوناه (وتعنى غير طاهرة من الحيض، عبدة، غير يهودية، عاهرة) وعندما تعتنق المرأة الديانة اليهودية تكف عن كونها نيداه وشيفحاه وغوياه، لكنها تظل زوناه (عاهرة) بقية حياتها، ببساطة لأن أمها ليست يهودية. وهناك فئة خاصة «المرأة التى لا يحمل بها فى القداسة لكنها تولد فى القداسة» أى المرأة التى تعتنق أمها اليهودية عندما تكون حبلى بها ولتأكيد عدم حدوث اختلاط، يصر الحاخامات على أى اثنين متزوجين يعتنقان اليهودية معاً أن يمتنعا عن ممارسة العلاقات الزوجية لمدة ثلاثة أشهر.

بسبب «التخريجات» (المعروضة فى القسم الثانى) التى تسمح بأخذ الفائدة حتى من مقترض يهودى. ومع ذلك، يبقى أن تقديم قرض بلا فائدة ليهودى يعتبر عملاً من أعمال الإحسان، ولكن فى حالة المقترض غير اليهودى، هناك إلزام بأخذ الفائدة. وتتفق العديد من المراجع الحاخامية، فى الواقع، (وليس كلها) بما فيها ابن ميمون حول إلزامية استخلاص أكبر قدر ممكن من الفائدة على قرض لغير اليهودى.

٣ - الأشياء المفقودة

إذا عثر يهودى على شىء يحتمل أن يكون صاحبه يهودياً، فإنه يحض على بذل جهد كبير لإعادته، وذلك بإعلان العثور عليه على الملأ. خلافاً لذلك، يجيز التلمود والمراجع الحاخامية المبكرة لليهودى الذى يعثر على شىء فقده غير اليهودى بالاحتفاظ به لنفسه، بل ويمنعه، فعلياً، من إعادته لصاحبه[١]. وقد فرضت فى الأزمنة اللاحقة، فى معظم البلدان،قوانين تجعل إعادة الأشياء الضائعة أمراً الزامياً، لذلك أمرت المصادر الحاخامية اليهود بضرورة التقيد بتلك القوانين، كنوع من الطاعة المدنية للدولة، وليس كواجب دينى، أى عدم بذل أى جهد للعثور على صاحب الشىء المفقود إذا لم يكن يهوديا.

(١) بعض الحاخامات فى فترة مبكرة جداً (القرن الأول للميلاد) أطلقوا على هذا القانون تسمية «بربرى» وأعادوا الأملاك المفقودة لغير اليهود. ورغم ذلك ظل القانون سارى المفعول.

٤ - الغش فى التجارة

تعتبر ممارسة أى نوع من الخداع لليهودى من الكبائر، أما لغير اليهود فلا يجوز ممارسة الخداع بطريقة مباشرة. ويسمح بالخداع غير المباشر إلا إذا نشأ احتمال أن يتسبب بإثارة العداء لليهود، أو إهانة الديانة اليهودية. والمثل النموذجى : وقوع خطأ فى عد النقود لحظة البيع، إذا وقع اليهودى فى خطأ كهذا فمن الواجب إرشاده، أما إذا شوهد غير اليهودى وقد ارتكب نفس الخطأ. فلا ينبغى لليهودى تنبيهه لذلك، بل القول له: «أنا أعتمد على حسابك» وذلك لتفادى عداوته إذا اكتشف خطأه فى وقت لاحق.

٥ - النصب

لا يجوز النصب على اليهودى سواء من خلال شراء أو بيع أشياء بسعر غير معقول. لكن ذلك لا ينطبق على غير اليهودى، لأنه مكتوب «لا يسلب الإنسان شقيقه»[1] وإذا نصب غير اليهودى على اليهودى، يجب إرغام الأول على تسوية الأمر، مع عدم معاقبته بصورة أشد من عقاب اليهودى فى حالة مشابهة[2].

---

(١) سفر اللاويين ١٤٦٢٥. هذه ترجمة حرفية للعبارة العبرية. طبعة الملك جيمس الإنجليزية «لا يقمع (يضطهد) أحدكم الآخر» لكن «يقمع» غير دقيقة ولكن «أحدكم الآخر» ترجمة صحيحة للمصطلح التوراتى «كل إنسان شقيقه». وكما أشرنا فى القسم الثانى تفسر الهالاكاه كل هذه المصطلحات باعتبارها تعنى اليهود فقط.

(٢) «شولحان عاروخ» «هوشين مشبات» ٢٢٧.

استناداً إلى شرطين: أولاً، ألا يستخدم للسكنى ولكن لأغراض أخرى مثل التخزين. وثانيا، ألا تؤجر ثلاثة بيوت أو أكثر من المجاورة للبيت المعنى.

وتفسر هذه الشرائع على النحو التالى: هكذا لن يسمح لهم بالإقامة فى الأرض، لأنهم إذا لم يمتلكوا الأرض ستكون إقامتهم مؤقتة[1] ولكن حتى الوجود المؤقت لغير اليهود يسمح به فقط «عندما يكون اليهود فى المنفى، أو عندما يكون الأغيار أقوى من اليهود، «ولكن» عندما يكون اليهود أقوى من الأغيار لا يجوز لنا السماح ببقاء وثنى واحد بيننا، حتى لو كانت إقامته مؤقتة، أو كان تاجراً جوالاً، فلا ينبغى السماح له بالعبور فى أرضنا ما لم يقبل بالقوانين التوراتية السبعة، لأنه مكتوب «لن يسكنوا أرضك»[2] وهذا يعنى عدم السماح لهم بالسكنى حتى بصورة مؤقتة. وإذا قبل القوانين السبعة يصبح مقيماً أجنبياً (غير توشاف) ولكن لا يجوز منح صفة المقيم الأجنبى إلا فى وقت اليوبيل [أى عندما يقوم الهيكل وتقدم الأضحية] وخلال الأزمنة التى لا يقام فيها اليوبيل يحظر قبول أى شخص لا يعتنق اليهودية اعتناقاً كاملاً (غير تساديك)[3].

يتضح مما سبق، كما يقول مؤيدو وزعماء غوش ايمونيم، أن كيفية معاملة الفلسطينيين تتعلق، حسب الهالاكاه، بمقدار قوة اليهود: إذا كانت لديهم قوة كافية فإن الواجب الدينى يقتضى طرد الفلسطينيين.

---

(١) ابن ميمون، مصدر سبق ذكره، «الزنا» ١٠، ٣ - ٤.
(٢) سفر الخروج، ٢٣، ٣٣.
(٣) ابن ميمون، مصدر سبق ذكره «الزنا» ١٠ ، ٦.

وكثيراً ما يجرى الاستشهاد بهذه القوانين من جانب الحاخامات الإسرائيليين وأنصارهم المتطرفين، هناك، مثل، قانون يمنع تأجير البيوت الثلاثة المجاورة للأغيار، وقد تم الاستشهاد به عام ١٩٧٩ فى مؤتمر حاخامى لمناقشة اتفاقيات كامب ديفيد. كما أعلن المؤتمر أن «الإدارة الذاتية» التى أبدى بيغن استعداده لمنحها للفلسطينيين، تعتبر من منظور الهالاكاه، مسألة متسامحة جداً، ونادراً ما تلقى مثل هذه الآراء التى تعبر بدقة عن مواقف الهالاكاه أى مناقشة من جانب «اليسار» الصهيونى.

إضافة إلى الشرائع المذكورة، وهى موجهة ضد جميع الأغيار فى «أرض اسرائيل» هناك شر أشد وطأة ينشأ من الشرائع المعادية للكنعانيين القدامى والشعوب الأخرى التى عاشت فى فلسطين قبل غزو يوشع، وكذلك ضد العماليق. يجب إبادة جميع تلك الشعوب. ويكرر التلمود والأدب التلمودى الدعوات التحريفية للإبادة الجماعية بعنف أشد. كما يماثل الحاخامات المتنفذون، ممن لهم أنصار فى صفوف الضباط الإسرائيليين، بين الفلسطينيين (وحتى كل العرب) وتلك الشعوب القديمة، حتى تصبح لوصايا مثل «لن تترك حياً أى شىء يتنفس»[1] علاقة بالأحداث الجارية. ولا يندر فى الواقع أن تقدم لجنود الاحتياط، الذين يستدعون لأداء الخدمة العسكرية فى قطاع غزة، «محاضرة تربوية» يقال لهم فيها إن الفلسطينيين فى غزة «مثل العماليق». وقد استشهد حاخام إسرائيلى مرموق بالآيات التى تحض

---

(١) سفر التثنيه، ٦٠ ، ١٦، انظر أيضاً الآيات المذكورة فى هامش رقم ٣ص .

فى إسرائيل الصيغة الثانية، التى يستخدمها العديد من المعلمين فى المدارس الدينية، وبعد عام ١٩٦٧ عادت جماعات دينية كثيرة قريبة من «غوش ايمونيم» إلى الصيغة الأولى (شفوياً حتى الآن) وهم يصلون لربهم يومياً ليمحق المسيحيين فى الحال، وقد حدثت عملية التراجع هذه فى الفترة التى حذفت فيها الكنيسة الكاثوليكية (فى عهد يوحنا) من صلوات الجمعة الطيبة صلاة تدعو الرب للرأفة باليهود والمهرطقين... إلخ وقد نظر معظم الزعماء اليهود إلى تلك الصلاة باعتبارها عدائية وحتى لاسامية.

وبمعزل عن الصلوات اليومية الثابتة، ينبغى على اليهودى المتدين أن يتلفظ بتبريكات قصيرة خاصة فى عديد من المناسبات (مثلاً، عندما يرتدى ثوباً جديداً، أو يأكل فاكهة أول الموسم، أو يشاهد برقاً قوياً، أو يسمع أخباراً سيئة.. إلخ) وتستخدم بعض هذه الصلوات لزرع الكراهية والاحتقار تجاه غير اليهود، وقد ذكرنا فى القسم الأول كيف ينبغى أن يتلفظ اليهودى المتدين باللعنات إذا مر بجوار مقبرة غير يهودية، بينما يتلفظ بالتبريكات إذا مر بجوار مقبرة يهودية، ولكن هناك تعاليم تنطبق على الأحياء أيضاً، بناء عليها، إذا شاهد اليهودى المتدين حشداً من اليهود ينبغى أن يشكر الله، أما إذا شاهد حشداً من غير اليهود فينبغى أن يلعنهم. كما أن المبانى السكنية غير معفاة من هذا الأمر، إذ يحض التلمود[١] اليهودى الذى يمر بجوار بناية مأهولة غير يهودية أن يدعو الرب لتدميرها، وإذا كانت مدمرة، فينبغى أن يشكر رب الانتقام (ومن الطبيعى أن هذه القواعد معكوسة

(١) Tractate Berakhot, P 58 b.

بالنسبة للمبانى اليهودية) وقد كان من السهل التقيد بهذه التعاليم بالنسبة للفلاحين اليهود الذين يعيشون فى قراهم أو فى أحياء أو بلدات يهودية، لكنها أصبحت غير قابلة للتطبيق فى عهد اليهودية الكلاسيكية لذلك اقتصرت على الكنائس وأماكن العبادة للديانات الأخرى (ما عدا الإسلام)[1] وفى هذا السياق دخلت تلك التعاليم فى العادات الشعبية فأصبح من المألوف البصق (ثلاث مرات) عند مشاهدة كنيسة أو صليب[2]. ويمكن أحياناً ذكر بعض الآيات التوراتية التى تشتم الأغيار[3].

هناك، أيضاً، سلسلة من التعاليم التى لا تجيز الثناء على غير اليهود أو على أعمالهم، إلا إذا أسفر ذلك عن ثناء أكبر على اليهود والأشياء اليهودية، واليهود الأرثذوكس يحافظون على هذا الأمر حتى الآن،

(١) حسب عديد من المراجع الحاخامية مازالت القاعدة الأصلية سارية المفعول فى «أرض إسرائيل».

(٢) أدت هذه العادة إلى كثير من الحوادث فى تاريخ يهود أوروبا. أكثرها شهرة، والتى مازالت عواقبها بادية للعيان حتى الآن وقعت فى القرن الرابع عشر فى براغ، أمر الملك شارل الخامس ملك بوهيميا، (الذى كان الإمبراطور الرومانى المقدس أيضاً) بنصب صليب ضخم وسط جسر حجرى بناه ومازال قائماً حتى الآن وقد قيل له وقتئذ أن يهود براغ لديهم عادة البصق كلما مروا بجوار صليب. ولأنه كان حامياً شهيراً لليهود، لم يضطهدهم بسبب ذلك، بل حكم على الطائفة اليهودية بدفع نفقات نقش كلمة اروناى العبرية (الرب) على الصليب بحروف ذهبية. وهذه الكلمة إحدى أقدس سبع تسميات للرب، ولا يسمح بإبداء أى نوع من عدم الاحترام أمامها، ولذلك توقف البصق، أما الحوادث الأخرى المقترنة بهذه العادة فهى إقل إثارة للتندر.

(٣) أكثر الآيات المستخدمة عادة لهذا الغرض تحتوى كلمات مشتقة من الجذر العبرى «شاكيتز» التى تعنى «يكره، يحتقر» كما فى سفر التثنية ٧ ، ٢٦ «فلتحتقرهم كليا وتمقتهم» ويبدو أن عبارة الشتم «شاكيتز» المستخدمة للإشارة إلى الأغيار (انظر القسم الأول) مستمدة من أصل هذه العادة.

سوءاً من التلمود والكتب التلمودية الكبرى، وذلك لأنها تقدم الكثير من الشروح التفصيلية، وتصاغ بطريقة تؤثر على عقول الشباب وغير المتعلمين.

ومن بين عدد ضخم من تلك الكتب اخترت أكثرها شعبية فى إسرائيل فى الوقت الحاضر وقد صدر فى عدة طبعات رخيصة، وأسهمت الحكومة الإسرائيلية بقدر كبير من نفقات طباعته، إنه «كتاب التربية» الذى كتبه حاخام مجهول فى أوائل القرن الرابع عشر فى أسبانيا، ويشرح فيه ٦١٣ من الالتزامات الدينية اليهودية (ميتسفوت) بالترتيب الذى جاءت به فى أسفار موسى الخمسة حسب تفسير التلمود (التى ناقشناها فى القسم الثانى) نجد فى المدخل رقم ٢١٩ الالتزام الدينى المترتب على آية «أحبب لأخيك كما تحب لنفسك» وقد جاء هذا المدخل تحت عنوان «محبة اليهود واجب دينى» وشرحه كما يلى: (أن نحب اليهودى بقوة يعنى أن نحرص عليه وعلى ماله كما يحرص المرء على نفسه وماله لأنه مكتوب «أحبب لأخيك كما تحب لنفسك» وقد ذكر حكماؤنا طيب الله ذكراهم «لا تفعل مايؤذيك لأخيك» وعن هذا القول تنجم عدة التزامات دينية لأن الذى يحب صديقه كما يحب نفسه لن يسرق ماله أو يزنى مع امرأته، أو ينصب عليه، أو يكذب عليه، أو يسرق أرضه، أو يؤذيه بأى طريقة كانت. وتستند الكثير من الالتزامات الدينية على هذا الالتزام أيضا كما يعرف كل إنسان عاقل).

وفى المدخل رقم ٣٢٢ معالجة لواجب إبقاء العبد غير اليهودى عبداً طيلة حياته (بينما ينبغى عتق العبد اليهودى بعد سبع سنوات) وبهذا

الصدد يعطى التفسير التالى: «جذر هذا الالتزام الدينى حقيقة أن اليهود أفضل الكائنات البشرية، خلقوا ليعرفوا خالقهم وليعبدوه، ويستحقون الاحتفـاظ بعبيد لهـم، وإذا لم يكـن لديهـم عبيد مـن الشعوب الأخـرى، سيضطرون لاستعباد بنى جلدتهم، الذين لن يتمكنوا بهذه الطريقة من خدمة الرب. لذا من الواجب امتلاك العبيد لخدمتنا بعد إعدادهم وإلغاء الوثنية من كلامهم حتى لا يكون ثمة خطر فى بيوتنا [١]، وهـذا مـا تقصده آية «لن تستعبد إخوتك الذين يتهيئون جميعاً لعبادة الرب»[٢].

ويعالج المدخل ٥٤٥ الواجب الدينى القاضى بأخذ فائدة على النقود المقرضة لغير اليهودى. ومنصوص عليه كما يلى: إننا نؤمر بأخذ الفائدة من غير اليهود عندما نقرضهم المال، ولا يجب أن نقرضهم دون فائدة والتفسير هو: «وأساس هذا الالتزام الدينى أننا يجب ألا نقوم بأى عمل من أعمال الشفقة إلا تجاه الناس الذين يعرفون الرب ويعبدونه، وعندما نحجم عن أعمال الشفقة تجاه بقية الناس، ونقدمها فقط للفئة الأولى، فهذا اختبار من الرب، لأن الجزء الرئيسى من الحب والشفقة تجاه الفئة الأولى لصوره تتبع ديانة الرب ولتلاحظوا أن ثواب الرب لنا عندما نحجب الشفقة يساوى ثوابه لنا عندما نقوم بها تجاه أبناء شعبنا».

وهناك تمييزات مشابهة فى عديد من المقاطع الأخرى. ففى تفسير

(١) حسب الهالاكاه، العبد غير اليهـودى الذى يشتريه اليهـودى يجب أن يعتنق اليهودية، ولكنه لا يصبح يهودياً كاملاً.

(٢) سفر اللاويين ٢٥ ، ٤٦.

اليهودية مسكونة بكراهية عميقة جداً للمسيحية، وبجهل لها. وقد تفاقم هذا الموقف بفعل الاضطهادات المسيحية لليهود، لكنه لا يعتبر نتيجة لذلك. ويرجع تاريخ تلك الكراهية فى الواقع إلى الوقت الذى كانت المسيحية خلاله ما تزال ضعيفة ومضطهدة (ليس من جانب اليهود وحدهم) ولكن اعتنق تلك الكراهية ايضاً يهود لم يتعرضوا للاضطهاد على يد المسيحيين، بل تلقوا عونهم. وهكذا فإن ابن ميمون الذى تعرض لاضطهاد مسلمى نظام الموحدين وهرب إلى مملكة القدس الصليبية، لم يغير رأيه تجاه المسيحية، ويقوم هذا الموقف السلبى العميق على عنصرين أساسيين:

أولاً، على الكراهية والافتراءات الحقودة ضد يسوع، ويجب بهذا الصدد التمييز بين الموقف التقليدى لليهودية من يسوع من جهة والخلافات الإشكالية الفارغة بين المعادين للسامية والمدافعين عن اليهودية بشأن «مسؤولية قتل يسوع» من جهة أخرى، إذ يعترف معظم الدارسين المحدثين لتلك الفترة أن غياب الروايات الأصلية المعاصرة للحدث، والتدوين المتأخر للأناجيل والتناقضات بينها، لا تمكن أحد من تكوين معرفة تاريخية دقيقة بظروف إعدام يسوع. وبقطع النظر عن ذلك، أن فكرة الذنب الجماعى والموروث شريرة وعبثية. ولكن ما يهمنا هنا ليس الحقائق الفعلية حول يسوع، ولكن الروايات غير الدقيقة والمليئة بالافتراء فى التلمود والأدب التلمودى اللاحق- وهى روايات اعتقد بها اليهود حتى القرن التاسع عشر، ومازال الكثير منهم، خاصة فى إسرائيل، يؤمنون بها- لأنها لعبت دوراً هاماً فى تشكيل موقف اليهود من المسيحية.

يقول التلمود إن محكمة حاخامية يهودية حكمت على يسوع بالإعدام بسبب الوثنية وتحريض اليهود الآخرين عليها، واحتقار السلطة الحاخامية. وجميع المصادر الكلاسيكية اليهودية التى تذكر إعدامه تلقى بسرور بالغ مسؤولية إعدامه على اليهود، وحسب رواية التلمود لا يوجد ذكر للرومان.

أما الروايات الأكثر شعبية- وهى تؤخذ بجدية تامة- مثل كتاب «تولدوت ييشو» المشهور، فهى أكثر سوءاً، حيث تضيف إلى التهم التى اتهم بها يسوع تهمة السحر أيضاً، كان اسم «يسوع» فقط بالنسبة لليهود يمثل رمزاً لكل شىء مقيت، ومازال ذلك الإحساس الشعبى حياً[1]. كما أن الأناجيل مكروهة بنفس القدر، ولا يسمح بالاستشهاد بها (ناهيك عن تعليمها) حتى فى المدارس اليهودية الإسرائيلية الحديثة.

ثانياً، تستند الكراهية أيضاً إلى أسباب لاهوتية، يصدر معظمها عن الجهل. فالمسيحية تصنف حسب التعاليم الحاخامية كوثنية، وهذا قائم على تفسير فج للنظريات المسيحية حول التثليث والحلول، وينظر إلى جميع الرموز الدينية المسيحية باعتبارها «أوثان»، حتى من جانب أولئك اليهود الذين يعبدون حرفياً لفائف التوراة، و الحجارة أو الأشياء الشخصية «للرجال المقدسين»

---

(١) كلمة «يسوع - ييشو» العبرية فسرت بأنها بداية للعنة «فليقتلع اسمه وتزول ذكراه» وهذه البداية تستخدم كشكل من أشكال الشتائم المتطرفة. وفى الواقع فإن اليهود الأرثذوكس الذين يعادون الصهيونية (مثل ناتورى كارتا) يشيرون أحيانا إلى هرتسل بتعبير «هرتسل - يسوع» وقد عثرت فى كتابات دينية صهيونية على تعبيرات مثل «ناصر - يسوع» وأخيرا «عرفات - يسوع».

٩٣ / ١١٣١٨

I . S . B . N : 977 - 5140 - 61 - 7

عربية للطباعة والنشر

١٠،٧ شارع السلام ــ أرض اللواء المهندسين

تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨

الغلاف: عماد حليم

الديانة اليهودية
وموقفها من غير اليهود

لايجرؤ أحد فى الغرب (الولايات المتحدة وأوروبا الغربية) على توجيه انتقادات للديانة اليهودية كما يفعل شاحاك فى الدراسة المطروحة بين أيدينا، فالتهمة الجاهزة هى «العداء للسامية» إذا كان الناقد من غير اليهود ، أو «اليهودى الذى يكره نفسه» إذا كان الناقد يهوديًا ، وكلاهما يودى بصاحبه إلى التهلكة بالمعنى الوظيفى والعلمى ، والاجتماعى .

لقد ظهرت هذه النزعة بقوة واضحة بعد الحرب العالمية الثانية، وتكرست كظاهرة راسخة فى التقاليد الثقافية الغـ... قيام دولة إسرائيل . واتخذت فى العقود القليلة الماضـ... عصابيًا حتى بات كل انتقاد للسياسة الإسرائيلية مهـ... هامشيًا، عداء للسامية، وكل انتقاد للصهيونية برهنة جـ... خلود ذلك العداء الذى لا يزول ولا يدول.



